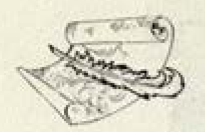
الأعلام من الأدباء والشعراء



كُثَيِّرُ عَزَّة

عصرُهُ - حياتُهُ - شِعرُهُ

إعداد

د. أحمد محمد عليَّان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

كثير عزة

عصره - حياته - شعره



إعداد

د. أحمد محمد عليان

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يمثّل كُثَيِّر عَزّة، ظاهرة أدبية عالية القيمة في الآداب العربية، وحقّه في الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفين بهبة الفن وصدق التعبير. وإنه لفي الطليعة الملحوظة لهؤلاء الشعراء.

كان هذا الشاعر، أقرب الفتيان، من أبناء الحجاز، إلى تمثيل عصره وبيئته؛ فقد نشأ في مجتمع الحضارة اليمنية والحجازية، في القرن الأول للهجرة، أي في القرن الذي هدأت فيه بالحجاز حركة الدعوة النبوية، كما هدأت فيه حركة السياسة بانتقال الدولة وعاصمتها إلى الشام، ولهذا ظلّت ماثلة له، بعد هدوء هاتين الحركتين، بقايا الوفاء والإخلاص القديم في عهد الجاهلية وطوالع القيم الروحية الجديدة في عهد الدولة الإسلامية.

وما أحرانا اليوم، ونحن في عصر الكشف عن التراث القديم، بالرجوع إلى شاعر غزلي كبير ندقق في أشعاره، ونتعمّق في بحث أغراضه الشعرية، فنستجلي بواطنها، ونستوضح مغازيها، ونستفيد من مضامينها على غير ندم أو ضجر.

لقد كان مصدري الأول في الكشف عن شخصية هذا الشاعر ديوانه لأن كُثَيِّراً اتخذ من شعره في هذا الديوان سِجِلًّا أميناً صوّر فيه حياته في جِدِّها ولهوها ونعمائها وبأسائها وفي منازعها وكل معتقداتها.

ولكشف جوانب شخصيته بشكل أجلى كان لا بدَّ لي من أن استجلي أمر البيئة المكانية التي عاش فيها، وأعيش فوق الأرض نفسها التي نشأ ودرج عليها؛ وأسبر أغوار الظروف والملابسات السياسية والاجتماعية التي أحاطت به، وأستغرق في التأمل في الحياة العقلية والثقافية التي كان يضطرب فيها ويحتك بتياراتها ومذاهبها متأثِّراً بها ومؤثِّراً فيها.

وعندما أردت أن أستعرض شعره وأستجلي معانيه وجدته قد نظم في أغراض متعددة: أبرزها شعره الغزلي الذي قاله في غرام عَزَّةَ وفي حُبِّه الشديد لها. وشعره السياسي الذي أيَّد فيه في المرحلة الأولى السياسة العلوية والسياسة الكيسانية وأيّد فيه في المرحلة الثانية السياسة الأموية. وأغراضه الأخرى التي توزعت على المديح والفخر وعلى الوصف والحكمة. وقد مضيت بعد ذلك أُدقِّقُ في خفايا أشعاره محاولاً أن أتبيّن بعض خصائصه الفنيّة ومنزلته بين أعلام الشعر في مرحلة مهمة من مراحل تطوره. واستطعت ـ بعون الله ـ أن أبرز هذه الخصائص وتلك المنزلة إبرازاً عماده التحرّي والإنصاف.

ولكن مهما بذلت من جهد، في سبيل الكشف عن شخصية

كُثَيِّر وعن أغراضه الشعرية، فإنني لا أزعم بأنني قد وصلت إلى القرار الفصل بل إنني أقول حاولت ـ قدر المستطاع ـ أن أسلك أصحَّ الطرق وأوضح المسالك؛ وأن أوفي البحث حقه من الدرس، من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة والحقيقة الخالصة.

وإني لأرجو أن تلقى هذه الدراسة المتواضعة قبولاً حسناً لدى قرّاء العربية ولدى كل العاملين في مجال الأدب والتربية.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

أحمد عليان

الفصل الأول:

بيئة الشاعر وعصره

البيئة المكانية:

يذكر المؤرخون أن كُثَيِّراً ولد عام ٢٣ للهجرة في قرية كُلَيَّة الحجازية[١]. وهي قرية صغيرة هادئة تقع بين مدينتي مكة ويثرب. كان يعيش فيها كُثَيِّر في حداثته كأترابه فيسرح بأغنام أهله ويرعى إبلهم وغالباً ما كان يكلّفه عمه ببيع بعض هذه المواشي في سوق الجار في يثرب وفي مواسم الحج بمكة[٢]،وهذا ما جعله يتعلّق بحياة المدن ويهوى العيش فيها. وكانت أول مدينة جذبته هي يثرب وهي إحدى مدن الحجاز القديمة فيها نخل وآطام. ويُذْكر أن أول من نزلها هم العماليق، وقد سمّيت يثرب نسبة إلى يثرب بن عبيل من نسل سام بن نوح[٣]. ثم نزلها اليهود بعد القضاء على العماليق عند فرارهم من بختنصر البابلي فسكنوها وسكنوا خيبر؛ وانضمّ إليهم الكثير من إخوانهم بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها.

---

(١) معجم ما استعجم، ٩٥٤/٣، مراصد الاطلاع، ٢ : ٢٤٥.

(٢) الأغاني، ٩ : ٣١، وفيات الأعيان، ١٦٧/٣.

(٣) مروج الذهب، ١٤٨/٢.

ولمّا حصل سيل العرم وتفرقت قبائل مملكة سبأ سمعت قبيلتا الأوس والخزرج قول الكاهن: «من كان يريد الراسيات في الرحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل»[1] فلحقوا بها ونزلوها على اليهود فحالفوهم وأقاموا معهم وكان اليهود أهل تجارة ومال فاستغلوهم واستبدوا بهم عندها استجار هؤلاء الوافدين بالغساسنة فأنجدوهم وغلّبوهم فتحولت السيادة إليهم وحازوا الأموال وبنوا القصور والآطام، وعندما هاجر الرسول الأكرم إليهم نصروه ودخلوا الإسلام فسمّاهم الأنصار وسمّى بلدهم «طيبة» و «المدينة» وكره لها اسم «يثرب» لما فيه من لفظ التثريب.

ومما يثبت أن كُثيّراً عاش في المدينة المنورة ذلك الحانوت الذي كان يملكه فيها والذي كان يتولى أمره غلامه، فيبيع فيه العطور والخيوط والثياب والقطران. ويُروىَ أن عزّة كانت تأتيه فتشتري منه بعض العطر والثياب. وقد باعها هذا الغلام مرة بالدَيْن، وهو لا يعرفها، وعندما جاءته تختر في بعض النسوة طالبها بدينه فقالت له: حُبّاً وكرامة ما أقرب الوفاء وأسرعه. ولكن عندما تلكأت في تنفيذ وعدها قال: صدق مولاي حيث يقول:

قضى كل ذي دين فوفّى غريمه
وعزّة ممطول معنّى غريمها

(١) مروج الذهب، ٢/١٤٨.

فقلن صديقاتها له: أتدري من غريمتك؟ فقال: لا. فقلن: هي والله عزة. فقال: أشهدكنّ على أنها في حلٍ مما لي في ذمتها. ثم مضى إلى سيّده فأخبره بالحكاية فقال كثيّر: وأنا أُشْهِدُ الله أنت حُرٌّ لوجهه. ووهبه جميع ما في حانوته وفيه ألف دينار(١).

وفي أيام عبد الملك بن مروان استغلَّ كُثَيِّر منزلته لديه فسأله أن يقطعه أرضاً في ضواحي المدينة مغروسة بالأشجار والنخل فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ أرضاً لك يقال لها غُرَّب ربما أتيتها وخرجت إليها بولدي وعيالي فأصبنا من رطبها وتمرها بشراء مرة وطعمة مرة فإن رأى أمير المؤمنين أن يعمرنيها فعل. فقال له: أترغب غُرّباً؟ ذلك لك اكتبوها له فكتبوها له قطيعة(٢).

البيئة السياسية:

جاء النبي محمد (ﷺ) بدين جديد وحّد به معبود الجزيرة العربية كلها، فاتحدت آمال العرب حول هدف أسمى حمله الدين، وتناسوا الضغائن والأحقاد إلى حين(٣)، ولكن الطباع المغروسة في النفوس منذ أجيال طويلة لا يمكن أن تمحوها سنون

(١) المستجاد من فعلات الأجواد ص ١٢٤.

(٢) الأغاني، ٩: ١٠ وتاريخ دمشق، ١٦/٧٧٢.

(٣) برنارد لويس، العرب في التاريخ ص ٥٦ وجرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٦٥.

قليلة مضت بين دهشة الجديد والإعجاب بشخصية النبي اللامعة وعبقريته الفذة. ولم يكدْ يتحول عنهم حتّى اختلفوا في من يتولّى الأمر بعده. وانقسموا إلى مهاجرين وأنصار ثم انقسم الأنصار إلى أوس وخزرج[1].

ولكن ما إن تبوّأ أمر الخلافة أبو بكر حتى ارتدَّ بعض العرب عن الدين الجديد لأنه لم يكن قد رسخ في نفوسهم بعد، وهم بالتالي لم يتعوّدوا الاتحاد العام والطاعة لحكومة جديدة ولهذا أنشد أحد شعرائهم قائلاً:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا
فيا لهفتي ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا قام بعده
فتلك وأيمُ الله قاصمة الظهر

فتصدى أبو بكر لهذه الردّة وقضى عليها، فتوطّد الدين والأمن في الجزيرة بعض الشيء. وجاء بعده عمر بن الخطاب فتابع سيرة سلفه حيث طرد من الجزيرة العربية كل من لم يدخل في الدين الجديد وحاول أن يلهي العرب عن المنازعات الداخلية بالفتوحات الخارجية فسيّر الجيوش إلى الشام والعراق ومصر[2].

---

(١) حتي فيليب، تاريخ العرب ص ١٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص: ٢٠٨.

وكانت دولتا الفرس والروم المتاخمتان للجزيرة العربية قد هرمتا وتقوض الخلق الاجتماعي والسياسي فيهما فداهمهما العرب مباغتين فانهارتا بسرعة كبيرة كما ينهار البنيان المتداعي، ولم تتماسكا إلّا لبضع سنوات ثم انحنتا أمام جيوش المسلمين إمّا بالدخول في الدين الجديد أو بدفع الجزية أو بالانكسار الحربي.

ذلَّ هؤلاء الموالي بعد عزّ وطأطأوا رؤوسهم خانعين وأخذتهم الدهشة، فلم يستفيقوا من كبوتهم حتى كان العرب وهم - مستعمروهم بالأمس القريب - سادة يحكمون في رقابهم وفي أموالهم؛ وأصبحوا أغنياء بعد فقر وأعزة بعد ذل، بيد أن الخليفة عمر منعهم من اقتناء الضياع والمزارع وكفل دفع أرزاقهم وأرزاق عيالهم من بيت المال. ولكن قتل عمر بدسيسة من هؤلاء الموالي المتألمين لعزّهم المنهار وسلطانهم المفقود فانتقلت الخلافة إلى عثمان بن عفان.

عهد عمر - وهو في نزاعه الأخير - إلى مجلس الستة في أن ينتخبوا خليفة للمسلمين، فاختاروا عثمان بن عفّان لهذا المنصب ولكنه كان ضعيف السياسة والتدبير واختص أقاربه بالمناصب الكبرى مما أغضب الناس وأثار بعض الناقمين عليه فحاصروه وقتلوه شرّ قتلة[1].

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب ص ٢٣٨.

وبعد مقتله انتقلت الخلافة إلى عليّ بن أبي طالب[1]، وكان عليه أن يواجه بعض المتمردين فسار إلى العراق وقضى على تمرد طلحة والزبير وعائشة زوجة الرسول في معركة الجمل[2]. وبعد ذلك التفت إلى معاوية والي الشام الذي رفض الخضوع له وحرض أهل الشام على عدم طاعته فتواجه وإياه في معركة صفين[3] وكاد يقضي عليه لولا أن رفع أنصار معاوية المصاحف على رؤوس الرماح طالبين التوقف والتحكيم فتوقف الإمام على مضض ولكن انقسم أنصاره إلى راضٍ بهذا التحكيم وإلى كارهٍ له. وانشق عن جيشه حزم كان شديد الوطأة عليه وعلى خصومه هو حزم الخوارج[4]. ولولا هذه الحادثة المشؤومة لغلب عليّ ولانتهت الخصومات الحربية والمنازعات السياسية ولتغيّر وجه التاريخ الإسلامي إلى غير الشكل الذي نقرأه عنه الآن.

ولكن بعد هذه الحادثة الخدعة بقليل قتل الخوارج علياً[5]، فقوي جانب معاوية وأخذ يستميل الزعماء والأحزاب بالمال والوعود والمناصب حيناً وبالدسائس والمؤامرات والقتل حيناً آخر. وتمكن بفضل حنكته ودهائه من أن يوطّد أركان الدولة

---

(١) تاريخ العرب، حتي، ص ٢٧٣.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ١/ ٧٠ تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٨٢.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ٣/ ٤٠ وابن الأثير الكامل، ٣/ ٢٨٩.
(٤) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال ص ١٥٥.
(٥) الذهبي العبر، ١/ ٤٦.

الأموية وأن يحول الحكم الشوري إلى حكم وراثي دام حوالي المئة عام[1].

وعند وفاته انتقل الحكم إلى ابنه يزيد[2] الذي سار في خط أبيه فقضى على الثورات الداخلية وقمع المعارضة بقسوة متناهية[2] والتفت بعد ذلك إلى الخارج فسيّر الجيوش العربية إلى فارس وخراسان وإلى أرمينية ومصر وافتتح الكثير من المدن والبلدان[3]. وبعد وفاته انتقلت الخلافة إلى ابنه معاوية الثاني الذي تنازل عنها بعد بضعة أشهر من تولّيها لأنه كان زاهداً بالحكم من جهة ولكثرة الدسائس والمؤامرات التي أحاطت به من جهة ثانية. وبعد فترة وجيزة من الاضطراب السياسي انتقلت الخلافة إلى مروان بن الحكم الذي جمع بسرعة شمل الأمويين وقادهم بشكل خاطف إلى مواجهة الضحاك الفهري الذي كان يسيطر على دمشق فهزمه هزيمة منكرة في مرج راهط الواقع شرقي الغُوطة ودخلها منتصراً[4]، وبعدها تطلّع صوب العراق والحجاز وفلسطين ومصر فرآها في قبضة عبد الله بن الزبير ورأى الكوفة في قبضة المختار الثقفي، عندها قسم جيشه إلى فريقين: فريق

(١) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ص: ٥٥.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٣٦.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ٥: ٢٤٥.
(٤) ابن عبد ربه، العقد، ٥: ١٣٦ وتاريخ اليعقوبي، ٢: ٢٥٦.

أرسله ليناوش ابن الزبير في الحجاز وفريق سار به إلى مصر ففتحها وولّى ابنه عبد العزيز عليها[1]. وبعدها عاد إلى دمشق، وإنما لم تطل مدته، فمات سنة ٦٥ هجرية[1]، بعد أن عهد بولاية العهد لابنه عبد الملك من بعده. ولقد مات ولم تتحقق آماله في بسط سيطرته على الحجاز والعراق ولم يتمكن من القضاء على ابن الزبير الذي كان يسيطر عليهما.

وعندما تولى الخلافة عبد الملك أراد تحصين خلافته من الداخل والقضاء على كل الأخصام السياسيين، فبدأ بعمرو بن سعيد بن العاص ولي العهد بموجب مؤتمر الجابيه فأقصاه عن هذه الولاية وضَمِنَها لأولاده هو. ثم توجه إلى زفر زعيم القيسية فصالحه ليأمن شره ويبعد خطره. ومن ثم تفرغ لمحاربة الزبيريين والخوارج وكانوا أشد أخصامه خطراً عليه فبعث إليهم بقائده البارع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي سار إلى العراق وقتل مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هجرية[3]. ثم لاحق أخاه عبد الله إلى الحجاز وتمكن من القضاء عليه وإنهاء ثورته[4]. وبعد ذلك تفرّغ لمحاربة الخوارج وتمكن من القضاء على زعمائهم الواحد بعد

---

(١) ابن قتيبه الامامة والسياسة، ٢ : ١٣ والطبري، تاريخ الأمم، ٤ : ٤١٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ٢ : ٢٥٧.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣١٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١٥.

الآخر[1]. وبالقضاء عليهم تمّت له السيطرة الكاملة على العراق والحجاز واليمن وسائر أنحاء الجزيرة العربية. فوطّد أمن الأمويين وأعاد مجدهم السابق الذي بناه لهم معاوية الأول. وبعد وفاة عبد الملك انتقلت الخلافة إلى ابنه الوليد ثم إلى ابنه الثاني سليمان ثم إلى أخيه عبد العزيز ثم عادت إلى ابنه الثالث يزيد بن عبد الملك الذي توفي في عهده كُثيِّر. وقد أنشد هذا الشاعر الكثير من القصائد في مدح هؤلاء الخلفاء وسوف نرى تفاصيل ذلك عند الحديث عن شعره السياسي.

وإننا نلاحظ أن الفكرة السياسية قد تطورت في عهد الأمويين تطوراً سريعاً، فتحولت من سياسة قبلية ضيّقة إلى فكرة أكثر سعةً وضخامة، هي فكرة الملك الإسلامي الكبير. وصارت الخلافة ومن هو أحق بها مدار ألاعيب الساسة والزعماء. ولهذا كان لكل حزب يسعى إليها مؤيدون وأنصار يعضدون أفكاره ويدافعون عن آرائه بالسيف تارة وباللسان تارة أخرى. وكلها بالطبع تتمحور حول كرسي الخلافة والتفرّد بها.

البيئة الاجتماعية:

لم يستطع الإسلام تهذيب العصبية القبلية وإصلاح النفوس البدوية دفعة واحدة، لأن العثرات السياسية كانت تقف في طريقه بصورة دائمة، وحتى أن الجيوش المحاربة على الحدود ـ وهي

---

(١) ثريا ملحس، مدخل إلى العصر الأموي، ص ٢٦ ـ ٢٧.

المفروض فيها التجرد المطلق للإسلام الصافي وحده ـ لم تستطع التخلّص من النعرة «العشائرية» فبقي الفرد ذائباً في عشيرته يعتزّ بها ويحامي عنها ويفاخر بمآثرها ومما يؤكد ذلك ما جاء على لسان سلمة بـن زياد بن أبي سفيان الذي يقول:

وإن تقهروني حين غابت عشيـرتي
فمن عجب الأيـام أن تقهروا مثلي!!

وشبيه بهذا قول الفرزدق الذي استوهبته تلك المرأة الباهلية سوداء بنت العجيل، أعراض بني الحبال فقال:

وهبت لســوداء الحبــال فــأصبحت
وقــد علقت مني سيــور التمــائم[1]

إن في هذا دليلاً واضحاً على أن الشعر القومي المتسع لم يشمل نفوس الناس جميعاً وأن عقليتهم البدوية لم تتغيّر إلّا قليلاً، وحتى أن كبار الفقهاء لا يمثّلون هذا المجتمع تمثيلاً صحيحاً بل يمثلون طبقة خاصة منه فقط. ولهذا كان أفضـل من يمثل هـذا الشعب هم الشعراء إعلاميي ذلك الزمان وصحفه السيارة.

فكُثيِّر هو جزء من صورة الحيـاة الاجتماعيـة الأمويـة في الناس وكذلك الحجاج الـذي يمثل صـورة من نوع آخـر لحياة الأمويين في العراق.

دخل الحجاج العراق والفوضى السياسية والأخلاقية تنتشر

---

(١) راجع نوابغ الفكر العربي (الفرزدق) لممدوح حقي ص ١٥.

في كل مكان. وتتحدى كل شيء؛ بحيث بلغت جرأة بعض فسّاق البصـرة ـ في أيام زياد ـ أنهم كانوا يقبضون على المرأة في الطريق ويسمحون لها أن تنادي ثلاثة أصوات فإن أُغِيْثَتْ أطلقوها وإن لم تُغَثْ حَلّت لهم. وذُكِرَ أن اللصوصية والتعدي على أموال الغير ونبش القبـور وقطع الـطرق أمور كـانت شائعـة في بدايـة عهد الحجاج في العراق ومما يؤكد ذلك ما قاله الشعبي في مدح قائد شرطته الذي جاء فيه: «فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله. كان لا يحبس إلاّ في دين. وأذا أُتي برجلٍ نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره. وأذا أُتي برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حيّاً، وإذا جِيء برجل قاتل وأظهر سلاحاً قطع يده، فربما أقام أربعين يوماً لا يُؤتى إليه بأحد»[١].

وكان العراق كذلك موّاراً برواسب كثيـرة لأحزاب متبـاينة دينية وسياسية وثقافية وعرقية، فكان منه العربي الخالص والمتأثر بالفرس والحُرّ والعبد والهجين، وكان الزبيري والمرواني والعلوي والتواب والخارجي والسني والكيساني والمرجئي، وكان فيه من يميل إلى الأزارقة أو النجدات أو الصفرية أو الأباضية من مذاهب الخوارج وغيرهم. ففي هذا الجو المضطرب عاش الشعراء فكان لهم ردة فعـل موحّـدة تجاه الأوضـاع السياسيـة والحياتيـة التي اقتضاها تملّق الأسر الأمويـة الحاكمـة والتقرّب منهـا. وهم قد ظهروا عاجزين عن التجرد أمام تلك الطبقة التي احتكرت المجد

(١) المصدر السابق ص ١٦.

والسلطان وبنت ثـروتهـا على العقـارات والأراضي والضيـاع. وأقامت في الدور والقصور وسكنت في الحواضر والمدن. أمّـا بقية الناس فعاشوا حياة التملّق والتزلف والارتشاء. وحياة القلق والضنك والشقاء[١].

ولكن الحيـاة الاجتماعيـة في الحجاز كـانت تختلف عن الحياة الاجتماعية في العراق، لأنِ القرشيين الذين صاروا سادة العالم في أوائل الفتوحات الإسلامية واسـترقّوا الكثيـر من أبناء البلاد المفتوحة والذين تدفّقت على بلادهم الثروة كان لا بدّ لهم من أن يعيشوا حياة ترف وعزٍ ومجد[٢]. وقـد زادت ثروة أهل الحجاز بشكل أكثر في أيام معاوية الذي أغدق عليهم الكثير من الأموال والهبات ليرضيهم ويبعدهم عن جو السياسـة والمطالبـة بالخلافة. وقيل أنه بلغ مجموع ما أرسله إلى الحسين بـن علي ألف ألف درهم سنوياً استرضاءً له لكي يبقى بعيداً عن المطالبة بالخلافة[٣] وكان يرسل الكثير من هذه الأموال إلى أبناء السروات في الحجـاز ليظلوا بعيـدين عن السياسـة وأجوائهـا ولهذا أكب الشباب هناك على البذخ واللهو وسعوا للبحث عمن يرفّه عنهم ويملأ فراغهم السياسي. كما أن الحضـارة الأجنبية التي نُقِلَتْ إليهم عبر أسرى الروم والفرس حضارة ترف وغنى أشـاعت في

(١) مدخل إلى أدب العصر الأموي، ثريا ملحس ص ١٢١.
(٢) أحمد أمين، فجر الاسلام ص ٨٥.
(٣) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢١٨.

بلادهم أجواء الموسيقى والغناء وأشاعت اللهو والبذخ والصيد والسباق والشطرنج والشراب وحملتهم على بناء القصور والحدائق وعلى لبس الخزّ والديباج الموشّى بالذهب[1]. وأمّا النساء فلبسن الثياب الرقيقة من الحرير والديباج وغالين في الأزياء والتحلّي باللآلىء والجواهر الثمينة[2]. فنشأ من جرّاء هذا الجو المترف طبقة لا تهتم إلاّ بالموسيقى والغناء وابتعدت كل البعد عن أجواء الثورات والفتن السياسية التي انتقلت بمجموعها إلى الشام والعراق.

أما بلاد الشام فكانت تعيش هاجس الخلافة والمحافظة عليها وهاجس الصراعات الداخلية التي تحاك حولها. ولكن بعد أن تمكن الأمويون من المحافظة عليها ومن القضاء على المعارضة الداخلية، وبعد أن مدوا سلطانهم غرباً إلى مصر وتونس والمغرب وشرقاً إلى بلاد الهند والصين، اتجهوا إلى حياة الغنى واللهو وإلى حياة الثروة والرخاء فبنوا القصور وعاشوا أبهة السلطان. واستقدموا الكثير من المغنين والمغنيات ونقلوا معهم الحركة الغنائية الحجازية إلى دمشق فرحّب بها الخلفاء والأثرياء وأقاموا لها مجالس الطرب في دُورهم وقصورهم وكان من بينهم يزيد بن معاوية[3] ويزيد بن عبد الملك الذي قيل أنه نقل

---

(١) ابن قتيبه عيون الأخبار، ٢ : ١٠٢ .

(٢) الأصفهاني ، الأغاني ١٥٧/١ .

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ .

المغنيتين الشاعريتين حبابة وسلامة من المدينة إلى قصره في الشام[1]. ولكن بالرغم من اندماج الأمويين في الولايات الشامية وبالرغم من ثرائهم فقد ظلوا شديدي الحنان إلى وطنهم الأصلي الحجاز وإلى بيئته الصحراوية ولهذا بنى معاوية قصوراً له فيه وبنى عبد الملك وأولاده الوليد وسليمان وهشام ويزيد قصوراً واستراحات في بادية الشام لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم[2]. وكانت هذه القصور مراكز للترفيه ومحطات ينطلقون منها لممارسة الصيد والقنص والسباق وغيرها. وكان الشعراء يفدون إلى هذه القصور من كل حدب وصوب ليمدحوا هؤلاء الخلفاء وينالوا هباتهم وهداياهم، ولهذا جاء شعرهم في غالبيته شعراً تكسبياً يقوم على المدح والهجاء وعلى النقائض والمفاخرات.

البيئة الثقافية:

أ ـ في المدن.

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربي والثقافة الإسلامية إلى كل المناطق التي وصلتها الفتوحات الإسلامية، فحيثما كانت تنتقل حاميات جنود المسلمين وقوادهم العرب وقبائلهم العربية المرافقة كانوا ينقلون معهم لغتهم وأدبهم وثقافتهم وهناك تأخذ في الانتشار بين سكان البلاد الأصليين بفضل الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة، فيقبل هؤلاء الداخلين في الإسلام على

---

(١) الأصفهاني، كتاب الأغاني ٨: ٩ و ١٠.

(٢) حتي فيليب، الاسلام منهج حياة ص ٣٠٨.

تعلّم اللغة العربية والأدب العربي وعلى حفظ علوم العرب وأشعارهم. ولهذا السبب انتشرت مواطن الأدب في المملكة المترامية الأطراف التي كانت تخضع لحكم الأمويين[1]. وكان أهم المواطن الأدبية والثقافية في عصر الأمويين: مكة والمدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق. وإذا درسنا الحركة الثقافية والأدبية في هذه المواطن نتوصّل إلى معرفة الحركة الثقافية الشاملة في عصر كُثيِّر ولهذا نبدأ أولاً بمكة المكرمة.

مكة هي مدينة رسول الله وهي مهبط الوحي، منها انطلق الإسلام وإليها يحج جميع المسلمين. كان فيها معاذ بن جبل أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً ومن أعلم الصحابة بالحلال والحرام. ومن علماء مكة أيضاً عبد الله بن عباس الذي كان يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب. ومنهم أيضاً عطاء بن رباح وطاوُس بن كيسان ومجاهد بن جبير وسفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي.

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء ولا سيما في مواسم الحج. كما كانت تعقد في المسجد الحرام حلقات الدين ومدارسة الأدب[2].

أمّا المدينة فكانت هي الأخرى لها شهرتها الأدبية وذوقها الحساس ونقدها اللمّاح منذ الجاهلية، ويؤكد ذلك النابغة

---

(١) عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر بني أمية ص ٣٣.
(٢) ابن الاثير، الكامل ٢ / ١٤٤ ـ والحياة الأدبية لخفاجي ص ٣٦ ـ ٣٧.

الذبياني الذي يقول: «دخلت المدينة وفي شعري عهدة وخرجت منها وأنا أشعر الناس». وعندما بدأ الإسلام هاجر الرسول (ﷺ) إليها. وكان له فيها شعراء ينافحون عن دعوته ويذودون عن رسالته وعلى رأسهم حسان بن ثابت الذي كان ينشد الشعر في هجاء قريش خصوم الرسول (ﷺ) فيقول له: قل: وروح القدس معك، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام في غبش الظلام[1].

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين فكانت المدينة تحمل دائماً لواء المعارضة للحاكمين ولهذا عاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع وتنابذ وتقاذف حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاءً قبيحاً عندما استحلق زياداً بنسبه. واستفحل الشرّ بينه وبين عبد الرحمن ابن الحكم في المدينة فتهاجيا وتفاحشا[2].

وكان للشعراء في المدينة مجالس يتناشدون فيها الشعر وينقدونه فيعيبون رديئه ويستحسنون جيّده. يروى أن عمر بن أبي ربيعة قدم المدينة فاجتمع به الأحوص ونصيب وكُثيِّر فتحدثوا ملياً عن الشعر وأفاضوا في ذكر الشعراء. فأقبل كُثيِّر على عمر فقال له: إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك أخبرني يا هذا عن قولك: ثم اسبطرت تشتد في أثري تسأل أهل

(١) الحياة الأدبية ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨.

الطواف عن عمر، أراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر، إنما توصف الحرة بالحيـاء والإباء والبخل والامتناع. ألا قلت كما قال الأحوص:

أدور ولـــولا أن أرى أم جـعـــفـــر
بـــأبـيـــاتـكـم مـــا درت حـيـث أدور
ومـــا كـنت زواراً ولـكـن ذا الـهـــوى
وإن لـــم يـــزر لا بـــدّ أن ســيـــزور
لقـــد منـعت مـعـــروفهـــا أم جـعفـــر
وإني إلـى مـــعـــروفـهـــا لـــفـقـيـــر

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء. فأقبل كُثيِّر على الأحوص وقاله له: لقد أبطل آخرك أولك أخبرني عن قولك:

فـــإن تـصـلني أصـلك وإن تـبـيـنـي
بـهـجـــر بـــعـــد وصـلك لا أبـــالـــي

أما والله لو كنت حُرّاً لباليت ولو كسر أنفك. ألاَ قلت كما قال نصيب:

بـزينب ألمم قبـل أن يـرحـل الـركب
وقـــل إن تمليـنـــا فمـــا مـلك القـلـب

فـانكسـر الأحـوص ودخلت نصيبـاً زهـوة، فلمـا رأى أن الكبريـاء قد دخلته التفت كُثيِّر إليه وقـال: وأنت يـابن السـوداء أخبرني عن قولك:

أهيم بـدعـد مـا حييت فـإن أمت

فـواكبـدي من ذا يـهيم بعـدي[1]

أَهَمَّكَ ويحك من يهيم بها بعدك؟ فلما أمسك كُثَيِّر أقبل عليه عمر فقال له: قد أنصتنا لك فاسمع. أخبرني عن تخيّرك لنفسك وتخيّرك لمن تحب حيث تقول:

ألا ليتنـا يـا عَـزَّ من غيـر ريبـة

بعيـران نـرعـى في الخـلاء ونعـزب

كـلانـا بـه عـرٌّ فمن يـرنـا يقـل

على حسنها جـربـاء تعـدي وأجـرب

إذا مـا وردنـا منهـلاً صـاح أهله

علينـا فمـا ننفـك نـرمى ونضـرب

وددت وبـيـت الله أنـك بـكـرة

هجان وأني مصعب ثم نهرب[2]

تكـون بغيـري ذي غنى فيضيعنـا

فـلا هـو يـرعـانـا ولا نحن نـطلب

(١) أنشد هذا البيت في مجلس عبد الملك فنقده وقال: الجيد أن يقول:

أهـيـم بـدعـد مـا حـيـيـت فـإن أمـت

فـلا صـلحـت دعـد لـذي خـلة بـعـدي

(٢) نعزب: نبعد في المرعى ـ العَر أو العُر: الجرب ـ البكرة: الناقة الفتية ـ هجان: ناقة بيضاء اللون كريمة ـ المصعب: الفحل الذي يترك فلا يركب.

فقد تمنّيت لها ولنفسك الرقّ والجرب والرمي والطرد والمسخ، فأيّ مكروه لم تتمنَّ لها ولنفسك؟ وهذا ما يثبت أن المدينة كانت تعجُّ بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون سطوة حاكم ولا يرهبون قوة ظالم[١].

كانت المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، إليها هاجر الرسول (ﷺ) وبها وضع أكثر تعاليم الإسلام، وهي كانت مقام أكثرية الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه. واشتهرت المدينة بالعلوم الدينية مثل تفسير القرآن ومدارسة الحديث واستنباط الأحكام منهما. وبرز من علمائها زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ثم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام من التابعين. وعرف من علمائها أيضاً صالح بن كيسان وابن شهاب الزهري وسواهم. ولم تقتصر شهرة المدينة على علماء الدين بل نبغ فيها بعض رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدي وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسير والمغازي. وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين ومجتمع الموالي الذين سُبُوا من مختلف البلاد الإسلامية وأكثريتهم من عناصر متحضّرة ومن الذين برعوا في النادرة والفكاهة فيها الغاضري وأشعب ومن الذين برعوا في الغناء معبد[٢].

---

(١) الحياة الأدبية ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق.

أمّا البصرة والكوفة فهما من أشهر مدن العراق تأسستا في عهد عمر بن الخطاب. نزل بهما العديد من الصحابة واختلط فيهما العرب بالموالي عن طريق التزاوج والسُّكنى. ولم يمضِ على بنائهما وقت طويل حتى أصبحتا من أكبر مراكز الحياة العلمية والثقافية في العراق، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة، وشريح والشعبي وسعيد بن جبير وأبو حنيفة من التابعين. واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك من الصحابة ثم الحسن البصري وابن سيرين من التابعين[١].

واشتهرت هاتان المدينتان أيضاً بالنبوغ في علوم النحو واللغة وتفوّقت البصرة في هذا الموضوع وكان من علمائها أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد والأصمعي. واشتهر من علماء الكوفة الكسائي. وكان بين هاتين المدينتين تنافس في اللغة والأدب وفي الصرف وعلم الكلام، وكان لكل علم من هذه العلوم علماء يتعصّبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم. وكان الكوفيون على العموم أكثر استعمالاً للقياس والبصريون أكثر تفضيلاً للسماع. وكان يعيش فيهما من الشعراء الفرزدق وجرير والكميت الأسدي وذو الرمة وسواهم[٢].

أما الفسطاط فكانت هي الأخرى من المدن الإسلامية التي

---

(١) الحياة الأدبية ص ٤١.

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها.

ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية أنشئت في العام ٢١ هجرية. وأول من اشتهـر بها من العلمـاء عبد الله بن عمـرو بن العاص أحد كبار الصحابة ثـم عبد الله بن لهيعة الذي يعد من أبرز المصادر الذين رُوِيَتْ عنهم الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر، ثم الليث بن سعد أحد الأئمة الذين يقرنون بمالك وبأبي حنيفة. ثم نزل بها الإمام الشـافعي ودرس فيها ووضـع مذهبـه الجديد. ووفد على مصر من الشعراء في عهد الأمـويين جميل ونصيب والليث وَكُثَيِّر وابن قيس الرقيات وأبو العيال وأيمن خزيم وسواهم من شعراء العرب[١].

وأخيـراً دمشق التي كانت عـاصمة الأمـويين ومنارة العلم والثقافة والأدب ومقصد الناس من كل حدب وصوب فيها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة، رغبة في المعرفة وحرصاً على مال الخلفاء والأمراء. ومن العلماء الذين اشتهروا فيها: يوحنا الدمشقي[٢] وخالد بن يزيد بن معاوية الذي أخذ صنعـة الـطب والكيميـاء والنجوم عن علمـاء الشام. وهو الذي قال فيه الجاحظ كان خالد خطيباً شاعراً كثير الأدب حكيماً. وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفـة وقرّب أهل الحكمة. وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحـروب

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣.
(٢) المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٣٠٢ وحتي، تاريخ العرب ص ٢٥٦.

والآداب والآلات والصناعات[1]. وكان يعيش في هذه المدينة من رجال العلم والشعر أيضاً: عدي بن الرقاع العاملي ومعاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وسواهم[2]. وقد أمّها في عهد الأمويين الكثير من الشعراء والأدباء.

ب - في مجالس الخلفاء الأدبية.

تعددت مجالس الأدب والشعر في هذا العصر وكثرت حلقاتهما، وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر. فلقد كان خلفاء بني أمية عرباً أقحاحاً يطربهم المعنى الرائق واللفظ الفائق ويعجبهم الأسلوب الناضج والتعبير البديع والتصوير الجميل لما فُطِرُوا عليه من ذوق حساس وسليقة مرهفة وبصيرة نافذة وذكاء متوقد وعلم غزير ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها وبمفاخرها ومثالبها.

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل شيء يعلي من شأن الأدب ويرفع من قيمة الشعر؛ وأن تعظم رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي على نحو ما سجّلته كتب الأدب ووعته صحائف التاريخ ونقله الرواة[3].

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين، ١/٣٤٣ وأدب العصر الاموي لثريا ملحس ص ١٦٠.

(٢) الحياة الأدبية لخفاجي ص ٣٤.

(٣) الحياة الأدبية لخفاجي ص ٢٢.

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم والإبقاء على سلطانهم أن عمدوا إلى إثارة العصبيات وبعث الخصومات وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ليشغلوا الناس بذلك عن مواثبتهم على الملك، ومنافستهم على السلطان ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك في أشعارهم وتصويره في قصائدهم. وشغلوا بالحديث عن أمجاد القبائل ومخازيها رغبة في مدح أو شفاءً لحقد أو طمعاً في عطاء.

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام وأمراء بلاغة وفرسان فصاحة. وألباء أدباء يميزون جيد الأدب من رديئه ويعرفون صحيحه من زائفه. ويقدرون منازل الشعراء. ويزنون الكلام بمعيار صحيح فيقبلون الجيد ويثيبون عليه ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلّون على موضع نقصه ومكان عيبه ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية وفطرهم الأدبية وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار، ما يعينهم على صدق الحكومة ويدفعهم إلى حسن التقدير وجمال المثوبة، وهل هناك أدل على صفاء الذوق وقوة الملاحظة، ودقة النقد وصادق التمييز مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات وقد أمّنه بعد خروجه عليه فمدحه بقوله:

إنّ الأغرّ الذي أبوه أبو العا
صي عليه الوقار والحجب

يـعـتـدل الـتـاج فـوق مفـرقـه

عـلى جـبـيـن كـأنـه الـذهـب

فقال عبد الملك: يـابن قيس تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم وتقول في مصعب:

إنـمـا مـصـعـب شـهـاب مـن الله

تـجـلّت عـن وجـهـه الـظلمـاء

مـلكـه مـلك عِـزّة لـيس فـيـه

جـبـروت مـِنـه ولا كـبـريـاء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم وأعطيتني ما لا فخر فيه وهو اعتدال التـاج فوق جبيني الـذي هو كـالذهب في النضارة.

قال قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر» ووجه عتب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفّة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة.

ثم قال له عبد الملك: أما الأمان فقد سبق لك ولكن لا تأخذ في المسلمين عطاءً أبداً[1].

وقال سليمان بن عبد الملك وقد اجتمع عنده مرة الفرزدق وجرير وكُثيِّر وابن الرقاع أنشدوني من فخركم فبدرهم الفـرزدق مرتجلاً بفخر متشامخ.

---

(١) الحياة الأدبية لخفاجي ص ٥٥.

فقال لهم سليمان: لا تنطقوا!! والله ما ترك لكم مقالاً[1].

ولم يكن قصد سليمان بهذا إلّا أن يؤجج نار الحقد والبغضاء في قلوبهم وكل واحد منهم يمثل حزبه[2].

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار، ومتخير القصائد منزلة عالية ويثيبون عليه مثوبة طائلة وأنهم يتجهّمون لمواطن العيب ويفطنون في سرعة عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل وأنهم قد يعاقبون على ذلك عقوبة أقلها حبس العطاء وقبض الصلة، لمّا أيقن الشعراء من ذلك، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب وبالغوا أعظم المبالغة في تنقيح بنات أفكارهم وتهذيب قصائدهم لتفتح لهم القلوب المغلقة وتلين النفوس العصية وتستدرّ العطايا السنية وتستل ما في النفس من حقد دفين وغل مقيم.

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيّد من المدح والبليغ من الثناء، وكانوا في نشوة هذا الطرب وفي غمرة تلك الأريحية يصفحون عن المسيء ويعفون عن المذنب ويقبلون شفاعة الشعراء[3].

ولقد كان الخليفة من خلفاء بني أمية ينشد بيتاً ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه وينبو به مضجعه، ويبعث في طلب الرواة

---

(١) الحياة الأدبية لخفاجي ص ٥٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٢٣/١٩.

(٣) الحياة الأدبية ص ٥٦.

والعلماء حتى يعرف قائله ثم يخلع عليهم العطايا ويهب لهم الجوائز ويصلهم بأكرم الصلات.

وكان هذا من العوامل التي شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقي الأشعار والبحث عنها لدى عارفيها والملمين بها. وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحيت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن يغفلوه إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل ما يحظى به الشاعر.

ويؤثر عن معاوية أنه كان يقول: اجعلوا الشعر أكبر همّكم وأكثر آدابكم فلقد رأيتني ليلة بصفّين وقد أتيت بفرس أغرّ محجّل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلّا أبيات عمرو بن الاطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات
واحمي بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك يقول لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

وقال لمؤدب ولده: إذا رويتهم شعراً فلا ترويهم إلّا مثل قول العجير السلولي:

يبين الجار حين يبين عني
ولم تأنس إلى كلاب جاري
وتظعن جارتي من جنب بيتي
ولم تستر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آتي
عليها وهي واضعة الخمار
كذلك هدى آبائي قديماً
توارثه النجار عن النجار

وجلس ذات مرة في عدة من أهل بيته وولده فقال: ليقلْ كل منكم أحسن شعر سمعه فذكروا لامرىء القيس وطرفة والأعشى وأكثروا فقال: أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه
بحلمي عنه وهو ليس به حلم
إذا سمته وصل القرابة سامني
قطيعتها تلك السفاهة والظلم
وأسعى لكي أبني ويهدم صالحي
وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يحاول رغمي لا يحاول غيره
وكالموت عندي أن يحل به رغم

فمـا زلت فـي ليـني لــه وتـعــطفي
عليــه كمـا تحنــو على الـولــد الأمّ
لأستــل منـــه الضغن حتـى سللتــه
وقد كان ذا ضغن يضيق بـه الحلم[1]

باختصار: نستطيع أن نتبين أسبـاب عنايـة الدولـة خلفاءً وأمراءً وولاةً وشعباً، حكاماً ومحكومين، باللغة والأدب في عروبة الدولة وفي الرغبة الملحة في الحفاظ على لغة القرآن الكـريم وعلى مآثر العرب وتراثهم وفي ميول الحكام إلى الأدب لملكاتهم العربية الخالصة.

وقد تجلّت هذه العناية بـالأدب في مظاهـر مختلفة، من سخاء على الأدب وتقريب لرجاله ورغبة في السماع منهم ولهم، ومن تنافس الشعراء في التقـريب إلى مجالس الخلفـاء والأمراء والولاة، ومن ظهور الأدب السياسي وقيام ديوان الرسـائل وجمـع الـرواة للشعر، إلى ميـول الخلفـاء الأدبيـة واحتفـائهم بـالأدب وعقدهم الندوات الأدبية التي يشاركون فيها في الحوار الأدبي وفي نقد الكلام.

وقد أثمرت هذه العناية باللغـة والأدب ثماراً كثيـرة منها: نهضة الأدب والشعر وتعدد فنونهما وقيام حركة التجديد في الأدب والشعـر والنثر الفنيّ؛ وحـرص الرواة على جمـع آداب العرب ودواوين الشعراء، وبدء حركة التأليف في الأدب واللغة والعلوم وحركة الترجمة إلى العربية...

---

(١) الحياة الأدبية ص ٥٧.

الفصل الثاني:

سيرة حياته

١ ـ اسمه ونسبه:

اسمه كَثِيْر بفتح الكاف وكسر الثاء وسكون الياء كـأَمِيْر. ولفرط قِصَرِهِ سُمِّي بِكُثَيِّر[١]. وقد ورد اسمه مُكَبَّراً في شعره:

وقــال لي الـواشــون ويحــك إنهــا
بـغـيــرك حقّــاً يــا كَـثِـيْــرُ تـهـيـم

وقال شاعر:

وإنـــي أنـــب مـــن كَـثِـيْــرٍ
إذا وصفت أخت الجُوذر[٢]

كما جاء معّرفاً بألّ ومُصَغَّراً في شعر ربيعة الرَّقيِّ:

جــميــل والـكُـثَـيِّــرُ قــد أحبّــا
وعُــروة من هــوى لاقى حِمَــامــا[٣]

وبهذا ذكره الهمذاني حين استشهد بشعره فقال وللكُثَيِّرِ:

---

(١) المشتبه ١/٥٤٥.

(٢) فرائد اللآل ٢/٣١٠.

(٣) طبقات ابن المعتز ص ١٦٤.

قبائل خيل ما تزال مطلة

عليهم فملّوا كل يوم قتالها[1]

وأبوه هو: عبد الرحمن بن الأسود. وقد حصل شيء من الخطأ في نسب الجد، فاعتبر بعض المصادر الأسود جدّاً لكُثَيِّر لأمه، بينما هو في الحقيقة جَدُّهُ لأبيه[2]. وأبو جُمعه هو جده لأمه واسمه الأشيم بن خالد[3]. وهو يكنّى بابنته جُمعه أمُ كُثَيِّر. وكان كُثَيِّر في بعض الأحيان ينسب إلى هذا الجد فيدعى: ابن أبي جُمعه[4].

٢ ـ مولده ونشأته.

ولد كُثَيِّر في عام ٢٣ للهجرة في قرية حجازية تدعى كُلَيَّة[5] ـ كما عرفنا ـ فنشأ فيها كلداته يرعى الأغنام ويسرح بالإبل. ورعاه في صباه عمّ صالح له حيث اشترى له قطيعاً من الإبل وسرّحه بها. ولكنها أساءت إلى جيرانه فضيّقوا عليه ورفضوا جواره فانتقل عنهم وقال:

أبت إبلي ماء الرَّداة وشَفَّها

بنو العم يحمون النّضيحَ المُبَرَّدا

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ٥٢٢.

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٦٥ والمقاصد النحوية ١/٤٥٩.

(٣) خزانة الأدب ٢/٣٨١.

(٤) الموشى ص ١٣٦.

(٥) معجم ما استعجم ٣/٩٥٤ ومراصد الاطلاع ٢/٢٤٥.

وما يمنعون الماء إلّا ضنانةً
بأصلاب عُسْرى شوكَها قد تَخَدّدا
فعادت ولم تَجْهَد على فضل مائه
رياحاً ولا سقيا ابن طلق بن أسعدا[1]

ويروى أن هذه الأبيات هي أول شعر له.

وفي ذات يومٍ من أيام الصَّبا كان كُثَيِّر يسوق قطيعه ويبحث عن الماء فقاده الظمأ إلى ينبوع الحب وملهمة الشعر عَزّة.

هذا مجمل ما وجدناه من أخبار طفولته وصباه. وهي أخبار تدل على أنفته من الأذى وكبريائه على الحيف منذ نعومة أظفاره. وفيها دليل صريح على نباهته ونجابته، وتدل على أن هذا العم الصالح الذي تربى في حضنه عزّ عليه أن يتخلّف ابن أخيه عن أقرانه فاشترى له قطيعاً من الإبل وأطلقه معهم إلى المراعي التي لم تكن مراعي إبل وغنم وإنما كانت ميادين فتوة.

ولكن لماذا ربّاه عمّه ولم ينشأ في رعاية أبيه فإن السبب في ذلك يعود:

إمّا إلى أنّ أباه كان مُدْقِعاً عاجزاً عن إعالته، وإمّا إلى أن كُثَيِّراً لم يكن على وفاق مع أبيه فانتقل إلى عمّه. وهذا السبب الأخير هو الأقرب إلى الصحة لأنه يُروى أن أباه أصابته قُرْحة في إحدى أصابعه فقال له كُثَيِّر: أتدري لِمَ أصابتك القُرْحه؟ قال: لا.

---

(١) الأغاني ٩/٢٣.

قال: مما ترفعها إلى الله في يمين كاذبة. وفي هذا الكلام دليل آخر على أن هذا الأب كان يقسو على ابنه. وإنه بالتالي لم يكن من علية القوم بل كان من سوادهم. فهو لو كان من الأجواد لعرف بجوده أو من الفرسان لعرف بفروسيته أو لو كان من الشعراء لعرف بشاعريته أو من الخطباء لعرفته المنابر والمحافل.

أمّا أمّه فهي كذلك لا نعرف عنها سوى أن أباها الأشيم كان يكنّى بها. وأن ابنها (كُثيِّـر) كان يعـرف بنسبته إلى أبيهـا. وقد نستنتج من نسبته إلى جده أبي جُمعه، أنه أمضى فترة من طفولته في كفـالتـه. وربمـا قـد ورث عن هـذا الجـد بَـرَشـه وقِصَـرَهُ ودمامته[1].

٣ ـ ألقابُهُ وكُنَاه.

أمّا ألقابه فأولها وأبرزهـا: كُثَيِّر، فهـذا اللقب غلب عليه وعرف به دون اسمه، كما غلب على جَرْول لقبُهُ الحُطَيْئة، الذي لُقِّب به لقصره وانحطاطه إلى الأرض[2]. فتصغير الاسم تصوير لقدِّه القصير؛ ولعله لم يكن محبّباً إليه لأنه ميسم قماءته. وربما كان أبغض من هذا اللقب لقبـه «زُبُّ الذباب» فهو ميسم قماءته وصغاره معاً. وكان غرماؤه يقذعـونه بهذين اللقبين وفي مقدمتهم زوج عزَّة الذي قال:

---

(١) صبح الأعشى ٢/ ١٥.

(٢) شروح ديوان الحطيئة ص ٤٢.

لعمرك ما زُبُّ الذُّباب كُثَيِّرٌ
بفحل ولا آباؤه بفحول[1]

وفي هذين اللقبين من جهة أخرى تصوير لمنزلته الاجتماعية أو على الأقل لمنزلته في نفوس خصومه، إنْ لم يمثّلا واقعه الشخصي. ولكن هل يصح أن نتخذهما دليلاً قاطعاً على ما كان له من مكانة؟ إن محتده الكريم وتعاليه عن الصغائر وحبه العفيف وموهبته الفنيّة كل ذلك جعل له منزلة عالية لم يحظَ بها كثير من شعراء عصره كالأحوص[2] ونصيب[3] وأضرابهما.

وقد نَعَتَهُ بعض من ترجم له بشاعر بني مروان وبشاعر عبد الملك خاصه الذي مدحه بقصائد بلغ من إعجابه بها أنه كان يستظهرها ويروّيها لأولاده. وبلغ من نفاسة معانيها أن هارون الرشيد عندما سمعها حسده على أن الأيام لم تتح له شاعراً يحسن أن يقول في ملكه مثلما كان كُثيِّر يقول في دولة عبد الملك[4].

ونَعَتَه بعضهم الآخر بشاعر خزاعة أو بشاعر قريش التي ادعى أنه من صميمها ولا سيما وأنه عاش في بيئة كان فيها لكل قبيلة شاعر ينشر لواء مفاخرها ويعلن ولاءها السياسي؛ كما كان

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤٠.
(٢) الأغاني ٤/٢٢٣.
(٣) المصدر السابق ١/٣٢٤.
(٤) روضات الجنات ١/٥٠٩.

الأخطل التغلبي والراعي النميري وسواهما. وسنتحدث عن ذلك عند تحليل أغراضه الشعرية.

على أن أشهر ألقابه اللقب الذي تعانق فيه اسمه واسم عزّة التي هام بها منذ الصّبا وما برح يترنّم بمفاتنها ويلهج باسمها الذي غدا دأبه كلما شدا بقافية حتى عُرِفَ بكُثيِّر عزّة وعُرِفَتْ بعزّة كُثيِّر. وأصبح كل منهما يُعْرَفُ بحبيبه أكثر مما يعرف بأبيه أو بقبيلته أو بأيِّ لقب أو كنية من ألقابه وكُناه.

وسائر ألقابه تحمل نسبه القبلي وهي: الخزاعي[١]، وخزاعة قبيلته. والأزدي[٢]، والأزد جده التاسع عشر. والمُلَحي[٣]، ومُلَيْح جده العاشر. والجِعْثَمي[٤]، وجِعْثَمة جده التاسع من ناحية أبيه والثامن من ناحية أمّه.

ولقّبه الخوانساري بالمُضَري[٥] بعد أن قال: ونسبه المُنيف ينتهي بخمس عشرة واسطة إلى إلياس بن مُضر. وبالحجازي[٦]، وكان الحجاز مولده وملعب صباه ـ كما عرفنا ـ. وبالمصري[٧]، لأنه أقام مدة بمصر في كنف أميرها عبد العزيز بن مروان.

---

(١) فحولة الشعراء ص ٣٥.
(٢) طرفة الأصحاب ص ٦.
(٣) الأغاني طبعة ساسي ٢١/١١٠.
(٤) الحماسة البصرية ص ٧٦.
(٥) روضات الجنات ١/٥٠٩.
(٦) المصدر السابق ١/٥٠٩.
(٧) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

أمّا كُناه فأشهرها: أبو صَخْر. ولكن هل صَخْر ابنه أو مجرد اسم اصطنعه فتكنّى به؟ هذان احتمالان أرجّح الثاني منهما لأنني لم أعثر فيما نقَّبت فيه من مصادر على ابن لكُثيِّر يعرف بصخر. وعلى الأخص في كتاب الأغاني الذي ذكر نسبه كاملاً من طرفيه. وذكر عمّه وعّمته[1]؛ وأن له ولدين هما: ليلى وثواب وحفيداً من ابنته ليلى هو: أبو صَخْر بن أبي الزعراء بن ليلى بنت كُثيِّر. فلو كان له ابن اسمه صَخْر لابتدأ بذكره قبلهم ولزاد في الحديث عنه، لأنه ينبغي أن يكون بِكْرَهُ. والرجل يكنى ببكره.

٤ ـ ثقافته وشهرته:

ذُكِرَ أنّ كُثَيِّراً طلب من عبد العزيز بن مروان أن يوليه شؤون الكتابة في إمارة مصر، وهذا يدل على أنه كان يتقنها إلى درجة بعثت طموحه إلى أن يتقلّدها في هذه الإمارة.

وكانت طبيعة نزعته الفنيّة الشعرية تفرض أن يجيدها، فقد كان من أصحاب المُقَلَّدات الذين لا يحوكون القصيدة إلاّ في حول، فلا ينشدونها إلاّ بعد أن تبلغ غاية فنّيتها.

ولعلّ كُثَيِّراً نفسه كان يعنى بأشعاره وأخباره فيدوّنها في كتاب وإنّ هذا الكتاب آل إلى أهله من بعده وهو يظهر في كلام أحد أحفاده من ابنته جمعه الذي يَذْكُرُ أنه وجد في كتب أبيه التي

---

(١) الأغاني ٩/٢٣ ـ ٩/ ١٩.

فيها شعر كُثيّر أن عبد الملك قال له: «ويحك إلحق بقومك من خزاعة».

وكان كُثَيّر راوية لجميل بثينة ومعجباً بـه ويعده إمـامه في الحب والغزل، ويغلب على الظن أنه كان يدوّن شعره ليستعين بكتابته على حفظه وروايته.

وقد كان مع معرفته الأكيدة بالكتابة عَلَماً من أعلام الأدب والأخبار في عصره، تُشَدُّ إليه الرحال التماساً لما عنده. قال حمّاد الراوية: قدمت المدينة فدخلت المسجد فكان أول من دُفِعْتُ إليه كُثيِّر عزّة، فقلت: يا أبا صَخْرٍ ما عندك من بضاعتي؟ قال: عندي ما عند الأحْوَص ونُصَيْب. قلت: وما عندهما؟. قال: هما أحق بأخبارك. قلت: إنّا لم نحثُّ الركاب نحوك إلاّ لطلب ما عندك، ليبقى لك، وقلّ من يفعل ذلك. قال: أفلا أخبرك ما دعاني إلى ترك الشعر؟ لمّا كان هذا الرجل والياً ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ فقلت له: بلى. قال: شخصت أنا والأحْوَص ونُصَيْب وكل واحد منّا يدلُّ بسابقة عند عمر بن عبد العزيز بن مروان[1]. . .

وقال رجل من بني كعب: جئت سوق الظّهر (الإبل) فإذا بكُثيِّر وإذا الناس متقصفون عليه فتخلّصت حتى دنوت منه فقلت يا أبا صخر؟ قال: ما تشاء؟ قلت: من أشعر الناس؟ قال: الـذي يقول:

---

(١) الأغاني ٩/ ٢٧٥.

وآثــرت إدْلاجي على لـيــل جَسْــرةٍ
هضيم الحَشَــا حُسَّــانــة المُتَجــرّدِ

قلت: هذا الحطيئة؟ قال: هو ذاك[1].

وسنرى من دراستنا لشعره سعة اطلاعه على غريب اللغة. ولعلّ أهل اللّغـة كانـوا أيضاً يقصـدونه ليـأخذوا عنـه ويستعينوا بمعرفته على فهمه (أي فهم الشعر)، ويدلّ على ذلك الأبيـات الوافرة التي نجدها في المعاجم.

وقـد تألّق اسم كُثيِّـر في سماء الشهـرة، فسـارت بشعـره الركبان، وطار صيته في الآفاق، وملأ أسماع عصره، حتى بات أحد أبياته أشهر من شعر عدي بن الرقاع العاملي شاعر مُضَر في بلاط بني مروان. قال الأصفهاني: ذُكِـرَ كُثَيِّر وعَـدِي في مجلس بعض خلفاء بني أميّة فامتروا فيهما أيهما أشعر، وفي المجلس جرير فقال: لقد قال كُثيِّر بيتاً هو أشهـر وأعرف في النـاس من عَدِيّ بن الرقاع نفسه. ثم أنشد قول كُثَيِّر:

أإن زُمَّ أجــمـــال وفــارق جـيـــرة
وصـــاح غُــراب البينِ: أنت طعيـن؟

وعن نسب ابن الرِّقاع. فلّما فرغ الوالي من خطبته، قال: إنّ أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أسألكم من الذي قال:

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٠٠.

أإن زُمَّ أجمال وفارق جيرة
وصاح غراب البين: أنت طعين؟

فابتدروا من كل ناحية يقولون: كُثَيِّر كُثَيِّر... ثم قال: وأمرني أن أسأل عن نسب ابن الرِّقاع؟ فقالوا: لا ندري. حتى قام أعرابي من مؤخّر المسجد، فقال: هو من عاملة(١).

٥ ـ وفاته.

ذكرت المصادر خمسة تواريخ لوفاة كُثَيِّر هي سنة: ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٥ هجرية. ولكننا نحن نرجِّح أنها كانت سنة ١٠٥ هـ. لأن الذي ذكر أنه توفي هذه السنة كان شاهد عيان، وهو خالد بن القاسم البياضي حيث قال(٢): مات عِكْرِمة مولى ابن عباس وكُثَيِّر عزّة في يوم واحد في سنة خمس ومائة فرأيتهما جميعاً صلّي عليهما في موضع واحد بعد الظهر. ولأن أغلب الذين ذكروا أنه مات سنة ١٠٥ هـ. أشاروا إلى أنه مات في نفس السنة التي مات فيها يزيد بن عبد الملك(٣). وقد مات يزيد في هذه السنة. أو أنهم قالوا إنه مات في ولايته(٤). ويؤيد هذا الرأي أن لكُثَيِّر مدائح في يزيد بن عبد الملك وله معه أخبار كثيرة. كما أن

---

(١) الأغاني ٩/٣٠٩.
(٢) المصدر السابق ٩/٣٦.
(٣) الكامل في التاريخ ٥/٩٠ وشروح التلخيص ١/١٨٦ وتاريخ الأمم والملوك ٩/١٤٦٣.
(٤) شروح التلخيص ١/١٨٦.

كتاب الأغاني وهو أوسع مصادر أخباره: أشار إلى أنه توفي سنة ١٠٥ هجرية فحسب ولم يذكر لوفاته تاريخاً آخر، فكأنه يقطع بذلك التاريخ ولا يشك فيه.

أمّا تاريخ وفاته سنة ١٠٤ هـ، فهو ظن ضعيف انفرد به اليافعي وحده[١]، مع شكه فيه. ونلاحظ أنه لم يذكر هذا التاريخ على أنه سنة وفاة كُثيِّر، بل ذكره على أنه السنة التي توفي فيها عِكْرِمة مولى ابن عباس رضي الله عنه.

كما نستعبد أن تكون وفاته عام ١٠٦ أو ١٠٧ أي أول خلافة هشام بن عبد الملك لأننا لا نجد له شعراً فيه ولا أخباراً له معه سوى خبر واحد هو أقرب إلى الخيال والاختراع منه إلى الواقع والحقيقة[٢].

أمّا التاريخ الأخير الذي جعل وفاته عام ١١٥ هـ فهو خطأ في خطأ، لأن كُثيِّراً لما مات صلّى عليه وشيّعه محمد الباقر وقد توفي محمد الباقر سنة ١١٤هـ.

أمّا عمره الذي بلغ حوالي اثنتين أو ثلاث وثمانين حجة فقال فيه المرزباني: توفي عِكْرِمة وكُثَيِّر بالمدينة في يوم واحد سنة خمس ومائة في ولاية يزيد أو في أول خلافة هشام وقد زاد واحدة أو اثنتين على ثمانين سنة[٣]. فإذا رجّحنا أنه توفي سنة ١٠٥ هـ.

---

(١) مرآة الجنان ١/٢٢٠ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) المستطرف ٢/٢٠٤ وروضات الجنات ١/٥١٠.

معجم الشعراء ص ٣٥٠ وأعيان الشيعة ٤٣/٢٤٢.

وأنه عاش اثنتين وثمانين سنة فالأرجح أن ميلاده كان عام ٢٣ هجرية.

٦ ـ شخصيته وبعض ميزاته النفسية

كان كُثَيِّر قصيراً متقارب الخَلق للغاية. قيل إنّه لم يكن يبلغ ضُرُوع الإبل. وقال الوَقّاصي: رأيت كُثيّراً يطوف بالبيت، فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه(١). وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان أو على أخيه عبد العزيز يقول له: طأطىء رأسك لا يصيبه السقف(٢).

وكان فوق قصره البليغ شديد الدمامة معروق القامة طويل العنق عظيم الهامة، أبْرَشَ أُقَيْشر(٣) أي شديد الحمرة كأن بشرته مقشورة(٤)، إلّا أنه كان موثّق الخلق جسوراً لا يهاب.

وكان مع جرأته حاضر البديهة سليط اللسان. لقيه الفرزدق يوماً فقال له: يا أبا صخر أنت أشعر العرب حيث تقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى بكل سبيل

يعرّض بسرقته من جميل فقال له كُثَيِّر: وأنت يا أبا فراس أفخر العرب حيث تقول:

---

(١) الأغاني ٩/٦.
(٢) المصدر السابق ٩/٦.
(٣) لسان العرب. مادة: قشر.
(٤) الأغاني ١٢/٨٧ و ١٥/٢٨٤.

تـرى الناس مـا سرنـا يسيرون خلفنـا
وإن نحن أومأنا إلى النـاس وقفـوا

وهـذا البيت لجميل أيضـاً سرقـه الفـرزدق. ثم قـال لـه الفرزدق: هل كانت أمك ترد البصرة؟ فقال كُثيِّر: لا ولكن أبي كان نزيلاً لأمك(١).

ومن حضور بديهته في الجواب أنّه مرّ راكباً في طريقٍ كان الإمام محمد الباقر ماشياً فيه وكُثيِّر لم يره، فقال له رجل: أتسير راكباً والإمام يمشي؟ فقال: إنّ الإمام أمرني بالركوب وطاعته أفضل من مخالفته(٢).

وكان عبد الملك يتمنّى أن يرى كُثيّراً فلما دخل عليه إذا هو قصير دميم تقتحمه العين وتزدريه. فقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال كُثيِّر: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان، وأنا الذي أقول:

تـرى الـرجـل النحيف فتـزدريـه
وفـي أثـوابـه أسـدٍ هَـصُـور
ومـا عِـظَمُ الـرجـال لـهم بفخـر
ولـكـن فـخـرهـم كـرم وخـيـر

---

(١) الأغاني ٨/٩٦و ٩/٣٤١ شرح شواهد المغني ص ٢٤. وكان الفرزدق ينزل البصرة.

(٢) أمالي المرتضى ٣/١١٩. ومجالس المؤمنين ٢/٥٤٠.

وبِغَاثُ الطير أطولها جسوماً
ولم تطل البزُاة ولا الصقور
وقد عظُم البعير بغير لُبٍّ
فلم يستغن بالعظم البعير
يجرّره الصبيُّ بكل أرضٍ
ويحبسه على الخَسْفِ الجرير

فاعتذر عبد الملك إليه ورفع مجلسه وما لبث حتى أصبح شاعره[١].

أمّا كبرياؤه فقد كانت أبرز صفاته. إذ كان من أكثر الناس تيهاً وأذهبهم بنفسه على كل أحد كما ترى في خبره مع عمر بن أبي ربيعة والأحوص ونصيب الذي رواه كتاب الأغاني فقال: إنّ عمر بن أبي ربيعة أتى المدينة، ثم ملَّ ثواءه بها فشخص منها وشخص معه الأحوص ولمّا نزلا قُدَيْداً صار إليهما نُصَيْب فمضى الأحوص إلى بعض حاجته فرجع إلى صاحبه وقال: إني رأيت كُثيِّراً في موضع كذا فقال عمر: فابعثوا إليه ليصير إلينا. فقال الأحوص: أهو يصير إليكم؟ هو والله أعظم كِبْراً من ذلك. قال: فصاروا إليه وهو جالس على جلد كبشٍ فوالله ما رفع منهم أحداً ولا القرشي[٢].

وكذلك كان جرير يعهد فيه الشمم فيوليه الاحترام، فقد قال

(١) تاريخ دمشق ٧٦٦/١٦.
(٢) العقد الفريد ٣٧٢/٥. الكامل في التاريخ ٥٠١/٢.

له يوماً: أي رجل أنت لولا قامتك أو لولا دمامتك فأجابه كُثيِّر:

إن أَكُ قَصْداً في الرجال فإنني
إذا حل أمر ساحتي لطويل[1]

ولكن لشد ما كان قدّه القصير ينوء بكبره الشّموس الذي كثيراً ما يجمع به فيقحمه في معارك لايخرج منها ميمون الحظ. فهو مُعْتَدٌّ بذاته لا يغضي على من يغضُّ منه بل يهجم ولا يبالي مهما كان خصمه يفوقه بسطة وقوة ومهما كان الظرف الذي يكتنفه. فمن ذلك هجائه للحزين الكناني الذي رواه الأصفهاني فقال: فلما أذن كُثيِّر للحزين أن يهجوه قال الحزين:

لقد علقت زُبَّ الذباب كُثَيِّرٌ
أساودُ لا يُطْنينه وأراقم[2]

فقام إليه كُثَيِّر فحمل عليه فلكزه وكان الحزين طويلاً أيِّداً (أي قوياً) فقال الحزين: أنت عن هذا أعجز، واحتمله فكان في يده مثل الكرةِ فضرب به الأرض فخلّصه منه الأزهريون[3].

ولا شك أن الغلو في التشامخ يعكس ما يعانيه من نقص بسبب عَشَابته الشديدة، ويرسم المفارقة بين علوّ همته، وضآلة قامته ودمامته. وكانت هذه المفارقة تدفع الظرفاء من أهل المدينة

---

(١) الأغاني ٦/٩. قَصْد: لا مسرف ولا ناقص ولكن في بيت كثير معناها قصير.
(٢) الأساود: الحيات. والأراقم: أخبثها. لا يطنينه: لا يبقين عليه.
(٣) الأغاني ٧/٩.

للعبث به فكانوا إذا مرَّ بجماعة منهم يقولون وهو يسمع : إنَّ كُثيِّراً لا يلتفت من تيهه؛ فكان الرجل يـأتيه فيـأخذ رداءه فـلا يلتفت ويمضي في قميص.

ومثلما انتحل الكبرياء ليجعل لذاته منزلة منيعة في النفوس أضفى على محّياه الجمال والجـلال وأسبغ على نفسـه البهـاء والنضارة فقال:

متى تحسـروا عني العمـامـة تبصـروا
جميـل المحيـا أغفـلتـه الـدواهن
يـروق العيـون النـاظـرات كـأنـه
هِـرَقْـلِيٌّ وزن الـتِّـبْـرَ وازن[1]

وإنه ليحمل قلباً مفعماً بسذاجة نبيلة تمثّلت في حُبِّه لأطفال الدوحه النبوية العلوية. فإنه لما كان يأخذ عطاءه يـأتي إلى وُلْدِ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طـالب فيهب لهم الـدراهم ويقـول: وا بـأبي أنتم الأنبيـاء الصغـار. فيقـول لـه محمـد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخوهم من أمهم: يا عم هب لي. فيقـول له: لا لست من الشجـرة. ومَـرَّ بمعـاويـة بن عبد الله بن جعفر وهو في المكتب فأكبَّ عليه يقبّله ويقول لـه: أنت من الأنبياء الصغار ورب الكعبة[2]. فإن نثره لهذه الدراهم على أطفـال البيت النبوي وهبـة جمله لسكينة وعـزّة وحـانـوته لغلامه، هي دلائل أكيدة على نفسه السخية وعلى نبله وعطائه.

---

(١) المصدر السابق ١٢/ ١٨٤ و١٨٧.

(٢) الأغاني ٩/ ١٨.

الفصل الثالث:

أغـراضه الشعـرية في الغـزل
وفي الأغراض الأخرى المتنوعة

يشتمل شعر كُثَيِّر على أغراض كثيرة أبرزها شعره الغـزلي الذي قاله في عزّة، وكله صادق الصبابة، والشعر السياسي الذي وزّعه بين الشعر الشيعي الذي عبّر فيه عن إيمانه بحق آل البيت في الخلافة وعن الإمامة والغيبة والرجعة، وبين الشعر الأمـوي الذي قاله بعد انتقاله إلى بلاط عبد الملك بن مروان وأيّد فيه حق الأمويين في الخلافة وإمارة المؤمنين. وله أغراض أخرى تشتدفنعما على المدح والرثاء والهجاء والفخر والحكمة.

وأمّا شعره الكثير فقاله في وصف مظاهر الحياة في البادية كوصف ديار الحبيبة وما يتعلّق بها من وصف الغمام والبرق والرعد والمطر واستسقائه لها، أو وصف أطلالها ورسومها وما بقي من آثارها كالدمن والنؤى والحيوان الذي اتخذها مأوىً ومرتعاً بعد رحيل أهلها ومايتعلق بها من وصف الظعن والرحلة والراحلة، وما تثير في نفسه من وحشة وأشواق، أو وصف بعض مظاهر البادية كرَمَالها وفجاجها وهجيرهـا ونسيم لياليهـا، وما فيهـا من حيوان كالظباء والنعام والذئاب والأسود، أو وصف بعض مشاعر الحج وما يتعلق بهذه المشاعر من مظاهر وشعائر.

١ ـ الغزل العذري:

أ ـ كُثَيِّر وعزَّة وشعره الغزلي فيها:

إنّ أجمل صفحة في حياة كُثيِّر هي تلك التي تصوّر قصة حُبّه لعزّة. وعندما ندرس الشعر الذي أنشده فيها نجد أمامنا قصة من أصدق قصص الحب العذري، فقد كان هذا العاشق ذا قلب خافق وإحساس مرهف وكان فوق ذلك إنساناً حساساً وشاعراً فصيحاً، فلا يكاد يختلج في صدره شعور من مشاعر الحب حتى يطفح على لسانه شعراً جميلاً.

وهو لا بدّ ترنّم بشعر كثير في أيامه الأولى عندما افترّ له ثغر عزّة فملأ صباه سحراً وأحلاماً. ولكننا لا نجد له بيتاً واحداً يدلّ على أنه نظمه في خلال تلك الأيام.

على أنه كثيراً ما كانت تهتاجه الذكريات ويعاوده الحنين إلى أيام الصِّبا فيذكر النعيم الذي غمره وحبيبته أول الدهر منعماً في ظلاله الوارفة وأيامه السعيدة آمنين روعات الفراق ولوعات الأشواق؛ يوم كان صدوده عنها يثير حنينها وغيرتها فتتحرك صبوته فيرنو إليها ويزداد تعلّقاً بها فنرى في فيض ذكرياته ومضات من تلك الأيام التي قال فيها:

وقد لفّنا في أوّل الدهر نعمة
فعشنا زماناً آمنين انفتالها

كألفة إلفا إذا صد وجهه
سوى وجهة حنّت له فارعوى لها[١]

---

(١) منتهى الطلب، ١٦٣/٣.

فــلا عيش إلاّ مثل عيش مضى لنــا
مصيفٌ أقمنـا فيـه من بعـد مـربـع[1]

وكانت الأطلال والدمن أشد ما يذكّره ويهيّج حنينه إلى عهود الصِّبا حيث الشمل مجتمع وحبل الوصل دائم. ويوم كان يحظي بإعجاب عزّة التي كان لا يرى في الناس أحداً يفـوقها جمالاً وفتنة فيقول:

عــلى أن بــالأقْــوَاز أطــلال دمنــة
تَجــدُّ بهــا هــوج الــريــاح وتـلعب
لــعَــزَّة إذ حــبــل الــمــودة دايــم
وإذ أنــت مـتـبــول بـعَــزَّة مـعـجـب
وإذا لا تـرى في الناس شيئاً يفوقهـا
وفيهن حسن لــو تــأملت معجـب[2]

ونحن لا نشك أن هذه الومضات التي نرى في ضوئهـا، بعض مشاهد حياته الأولى مع عزّة، لم ينظمها في أيام صباه بل نظمها فيما بعد.

ولكن أنّى يدوم عهد الصبا وعز اللقاء وهواجس الأيام وما تخبئه لا تنفكّ تـروع طائـر أنسهم بـالفـراق حتى غـدت هـذه الهواجس وكأنها قرحة على كبده لا تكاد تبرد حذراً من وقوعه:

---

(١) شرح ديوان كُثيِّر عزة، ١/ ١٢٤.
(٢) تهذيب اللغة، ١١/ ١٢١.

كـأن عـلى كـبـدي قـرحـة
حـذراً مـن الـبـيـن مـا تـبـرد[1]

وحين صدعه الفراق الأول، أصابه الذهول ودهمه الحزن واجتاحه اليأس. فها هو يرى أجمالها وقد زُمّت أحمالها ولكنه لا يصدق ما يرى فيسأل نفسه: أحقاً ستغادره الحبيبة وسوف لن يراها بعد الآن؟ إنّه لم يفق حتى نعب حادي البين مؤذناً بالرحيل. وما كادت الظعائن تغيب عن عينيه حتى أحسّ بسهم الفراق يخترق فؤاده وكأنه لم يسمع ولم يدرك من قبل معنى الفراق والحنين حتى فارق ألّافه وأحبائه فقال:

أبـائـنـةٌ سـعـدى؟ نـعـم سـتـبـيـن
كما انبتَّ من حبل القرين قرين!
أئـن زُمَّ أجـمـال وفـارق جـيـرةٌ
وصاح غراب البين أنت حزين؟
كـأنـك لم تسمع ولم ترَ قبلها
تـفـرّق ألّاف لـهـن حـنـيـن
حنين إلى ألّافهن وقد بدا
لـهـن مـن الـشـك الـغـداة يـقـيـن
كـأني ـ وقـد نكّبن بـرمـة واسط
وخلفن أحـواض النخيـل ـ طعين[1]

ثم يميل إلى صاحبه يسأله أين شطت بها النوى. وينعي

---

(١) شرح ديوان كثيّر عزة ١/ ٣٣٩.

(٢) منتهى الطلب ٣/ ١٧٥.

على هذه النوى عهدها الذميم لأنها دأبت على تنكيد المحبين بالشتات، فتركته معنًى سقيماً محزوناً يندب سعادته بعد مغادرة هذه الحبيبة:

سألت حكيماً أين شَطّت بها النوى
فخبرني ما لا أحب حكيم

فما للنوى لا بارك الله في النوى
وعهد النوى عند الفراق ذميم

شهدت لئن كان الفؤاد من النوى
مُعنًّى سقيماً إنني لسقيم

وما ظعنت طوعاً ولكن أزالها
زمان بنا بالصالحين مَشُوم

فواحزني لما تفرق واسط
وأهل التي أهذي بها وأهيم[1]

وأشد ما يهزّ العشاق ويؤجّج وجدهم ويفجّر دموعهم هي ساعة الرحيل ولحظة الوداع:

وبين التراقي واللهاة حرارة
مكان الشجى ما إن تبوخ فتبرد

ولمّا وقفنا والقلوب على الغضا
وللدمع سح والفرائص ترعد

أقول لماء العين: أمْعِن لعله
بما لا يُرى من غائب الوجد يشهد!

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٩.

ونظر إلى عَزّةَ ساعة الفراق فقال:

قـامت تـراءى لنـا والعين سـاجيـة
كـأن إنسـانهـا فـي لـجـة غـرق

ثـم استـدار عـلى أرجـاء مقـلتـهـا
مـبـادراً خلسـات الـطرف يستبـق

كـأنـه حـين مـار الـمـأقيـان بـه
دُرٌّ تـحـدَّر مـن أسـلاكـه نـسـق

أما بعد فراق الحبيبة فإنه يحسُّ كأن قلبه مشدود بحبال الأشواق فهي تُجذِّبه وتجرّه معها أينما اتجهت وحيثما حلت:

فـالقلب أصْـوَر عـنـدهن كـأنـمـا
يُـجَـذِّبـنَـه بـنـوازع الأشـطان

وظلّ بعدها تارة يشوقه البرق وتارة تهيجه مغانيها التي أصبحت أطلالاً دراسة بعد رحيلها:

أشـاقـك بـرق آخـر الليـل خـافق
جـرى من سنـاه بـينـة فـالأبـارق

لـعَـزَّةَ أطـلال أبـت أن تـكـلمـا
تهيـج مغـانيهـا الـطروب المتيمـا

ورأى أن حمامات الغضا تتفجّعُ عليها فيهجنه ويبكينه.

إذا علتهـا الشمس ظـل حـمـامهـا
على مستقـلات الغضـا يتفـجـع[1]

---

(١) شرح ديوان كثيّر عزة، ١/ ٢٧.

ألم تسمعي أيْ عَبْدَ في رونق الضحى
بـكـاء حـمـام لـهـن هـديـر
بكيـن فهيجـن اشتيـاقي ولـوعتي
وقـد مرّ من عهـد اللقـاء دهـور[1]

وما تفجّع الحمام ونواحه إلّا تفجع الشاعر ونـواحه على أحبائه الذين كانوا يزينون هذه الأطلال ويملأونها بالحب والبهجة والتي فارقها جمالها وزينتها بعد رحيلهم:

وكنتـم تـزينـون البـلاد ففـارقت
عـشيـة بـنتم زينـهـا وجمـالـهـا.

ولكن ماذا بعد الفراق غير الدموع والافتضاح:

إذا قيـل مهـلاً بعض وجـدك لا تشـد
بسـرك لا يسمـع حـديث فيـرفـع
أتـت عبـرات من سـجـوم كـأنـه
غـمـامـة دَجْـن استـقـل فـيـقـلع
إذا أتبعتهـم طـرفهـا حـال دونـهـا
رذاذ عـلى إنسـانـهـا يـتـربـع[2]

وصوّر إقفار دنياه وشتاته بعد رحيلها فقال:

أقيمي فـإن الغـور يـا عَـزَّ بعـدكم
إلـيَّ اذا مـا بِنْتِ غيـر جـميـل[3]

---

(١) المصدر السابق ١/٢٣١.
(٢) المصدر السابق ١/٢٧.
(٣) المصدر السابق ١/٢٧.

أيـادي سبـأ يـا عَـزَّ مـا كنت بعـدكم
فلم يحـلُ للعينين بعـدك مـنـظر[1]

ولكن حبال الأشواق التي شدت قلبه إلى الظاعنين لا تنفك تجذبه إليهم وتجره وراءهم والحنين يدفعه دفعاً إليهم حتى ينهض إلى أفراس الصبا للحاق بهم قبل أن يقضي عليه الحنين:

خليلي حُثَّا العيس نصبح وقـد بـدت
لـنـا من جـبـال الـرامتين مـنـاكب
فـوالله مـا أدري أآت عـلـى
وبـادي هـوان منكـم ومُغَـاضـب[2]

وقد رحلت عزَّةَ إلى مصر، فقال: يـذكر حنينـه إلى هذه الحبيبة التي لحق بها، وحنين ناقته إلى فصالها التي خلَّفتها في الحجاز:

فـإن تـك في مصـر بـدار إقـامـة
مجـاورة في الـسـاكنين رحـالـهـا
ستـأتيـك بـالـركبـان خُـوص عـوامـد
يعـارضن مَبْـراة شـديـد حبـالهـا
إذا رحـلت منـهـا قَـلُوص تـبـغّـمت
تبغم أم الخشف تـبغـي غـزالهـا[3]

وقال يصف شدة شوقه ولهفته إلى مصر حيث حلّت عزّة:

(١) المصدر السابق ١/٦٠.
(٢) شرح ديوان كثيّر عزة ٣/١٦٣ والبيت الثاني ناقص ولم نهتدِ لإتمامه.
(٣) منتهى الطلب ٣/١٦٥.

ولست بــراءٍ نحــو مصــر سحــابــة

وإن بــعــدت إلا قــعــدت أُشِــيــم[1]

وقال كذلك يذكر مسراه إليها:

ســـريت ولـولا حب أسمــاء لم أبت

تهــزهــز أثـــوابي فنــون شمــالهــا[2]

ولكن سهم الفراق ليس هو آخر وأنكد ما خبّأته له الأيام بل لعل هذا السهم أهون ما يصيبه منها خاصة إذا كانت عزة مقيمة على حبه. أما أشد ما يقلقه ويشفق منه فهو التغيّر. على أنه لا يشفق من فراقها بقدر ما يشفق من تغيرًّها بعده.

ألا ليت شعـري بعـدنـا هـل تغيـرت

عن العهد أم أمست كعهدي عهـودها

إذا ذكـــرتهـا النفس جُنّت لــذكـرهـا

وريعت وحنّت واسـتخـف جَلِيــدهـا

أما هو فيعاهد نفسه على أن لا يغدر بعد المواثيق والعهود التي يحافظ عليها بكل حب وإخلاص:

لا تغــدرن بـــوصـــل عَــزّة بعــدمــا

أخــذتْ عليـك مــواثقــاً وعـهــودا

إن الــمــحـــب إذا أحــب حــبيـبــه

صــدق الصفـاء وأنجــز المـوعــودا

---

(١) المصدر السابق ٣/١٧٣.

(٢) المصدر السابق ٣/١٧٠.

ولكنها لم تدم على كامل مودتها وسالف عهدها بل وقع ما كان يحاذر منه ويخشاه

لعمري أبي أسماء ما دام عهدها
على قولها ذات الزمين وحالها
فيا عجباً من شَوْبها عذب مائها
بملح وما قد غيّرت من فعالها
ومن نشرها ما حُملِّت من أمانة
ومن وَأْيِها بالوعد ثم انتقالها
وكنا نراها بادي الرأي خلة
صدوقاً على ما أعطيت من دلالها[1]

في هذه الأبيات يصوّر بداية تغيّرها، فهي لم تدم على عهدها كما كانت تزعم. ولم يعد فعلها يصدق قولها، بل أخذت تشوب مواعيدها المعسولة بالخلف والكذب، ولم تعد حريصة على كتمان أمانة الحب وإنما أخذت تنشرها دون مبالاة ولم تعد تفي بالوعود الموثقة المؤكدة، وتغيّر ذلك الدلال الى مخادعة ومجافاة. لا بل إنّ عزّة تغيّرت من حال إلى حال، فأصبحت كحاطب الليل الذي يحطب كل ما يصادف دون مبالاة ولا تمييز بعد أن كانت تعده بأنها لن تكون لغيره وتمنّيه بأنها له وحده وتزعم أنها أعزُّ وأمنع من بيض الأنوْق فأشمتت به كل من رأى ومن لم يرَ.

(١) منتهى الطلب ٣/ ١٦٥.

رأيت ابنــة الضَّمْري عَــزَّةَ أصبحت
كمحتـطب مـا يلقى بـالليـل يحـطب
وكــانـت تـمـنيـنــا وتــزعـم أنـهــا
كبيض الأنُـوْقِ في الصَّفَـا المتنقب[1]

إن هـذه المعاني التي تصـوّر عَزَّة وثبـاتـه على حبـه لهـا والصراع الذي بينه وبين قلبه من جراء ذلك نجدها تدور في أكثر قصائده وخاصة لزوميته اللامية المشهورة التي منها قوله:

وكنـا سلكنـا في صعــود من الهـوى
فـلمـا تــوافيــنـا ثـبــتُّ وزلَّــتِ
وكنـا عقـدنــا عقـدة الــوصـل بيننــا
فـلمــا تــواثـقــنـا شــددت وحـلَّتِ
فــإن تكن العُتبى فـأهــلاً ومــرحبـاً
وحُقَّت لهــا العـتبى لــدينـا وقـلَّت
وإن تــكــن الأخــرى فــإن ورأءنــا
مَنَـادِحُ لـو ســارت بهـا العيس كلَّت
خـليـليَّ إن الــحــاجـبيــة طَـلَّحـت
لــديــنــا ولا مَـقــلِيَّــةً أنْ تَـقَــلَّت
فــإنـي وإن صَــدَّت لَمُـثْنٍ وصــادقٍ
عليهــا بـمــا كـــانت لــديـنــا أزلَّت
فمـا أنـا بــالـداعي لعــزَّة بـالجــوَىَ
ولا شــامتٌ إن نَعْــلُ عــزَّةَ زلَّـت[2]

(١) منتهى الطلب ٣/١٦٥.
(٢) شرح ديوان كثيّر عزة ١/٥٠.

ولو دققنا في شعر كُثَيِّر الغزلي فإننا نلاحظ بأن أكثر ما يطالعنا من معانيه هو البخل في الوصل والمماطلة في اللقاء كقوله:

كأني أنادي صخرةً حين أعرضت
من الصُمِّ لو تمشي بها العصم زلَّت
صَفُوحاً فما تلقاك إلّا بخيله
ومن مَلَّ منها ذلك الوصل ملَّت[1]
قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزَّة ممطول معنى غريمها[2]

وكذلك صوّر شدة بخلها بالنوال وسرعة قِلاها بقوله:

وكم من خليل قال لي: لو سألتها
فقلت: نعم ليلى أضن بخيل
وأبعده نيلاً وأوشكه قِلىً
وإن سئلت عرفاً فشر مسول
وإن تبخلي يا ليلَ عني فإنني
توكلني نفسي بكل بخيل
ولم أرَ من ليلى نوالا أعده
ألا ربما طالبت غير منيل[3]

ثم يضرب لها المثل بنفسه في الكرم والوفاء بالوعد وحفظ

(١) شرح ديوان كثيّر عزة ١/٣٦.
(٢) المصدر السابق ١/١٧٢.
(٣) منتهى الطلب ٣/١٦٦.

غيبة الصديق عسى أن يهزّها هذا المثل فيعطفها عليه فتنوله ولهذا يقول:

ولست بـــراضٍ من خليـلي بنـائـــل
قــليــل ولا أرضـــى لـــه بــقــليــل
ولـيس خليـلي بـــالمـلوك ولا الـــذي
إذا غـبت عـنـــه بـــاعـني بـخـليـــل
ولـكن خـليلي مـن يــدوم وصـــالـــه
ويحفظ ســري عنـد كـــل دخيــل[1]

ولكن أين هو من هذه التي لو رآها البخلاء لتعلموا منهـا كيف يكون البخل والمطال:

ولـــو أن الـبـــاخليـن ـ وأنت مـنهـم ـ
رأوك تـعـلمـــوا مـنـــك الـمـــطالا[2]

بيد أنه على رغم علمه ويقينه ببخلها فهو يطالبها بالوصال والنوال تعللاً بالآمال لكي لا يدع ملاماً لنفسه.

يـــطالـبهـــا مـسـتـيـقـنـــاً لا تـثـيـبـــه
ولكن يسلّي النفس كي لا يلومهـــا[3]

بل إنه ليرضى حتى بغير البـذل ويكفيه منهـا صفاء الـود وطيب المعاشرة:

---

(١) المصدر السابق ٣/١٦٦.
(٢) شرح ديوان كثيّر عزة ١/١٥٠.
(٣) منتهى الطلب ٣/١٧٠.

وأرضى بغير البذل منها لعلها

تفارقنا أسماء والود صالح[1]

وإلاّ فإجمال إلي فإنني

أحب من الأخلاق كل جميل[2]

ويعيش على الأمل يمنّي النفس فإذا رأى الطير تمرُّ سنيحة أمامه تفاءل وكأنها جاءته بالبشير من عزّة فيقول:

أأدرك من أم الحُكَيِّم غبطة

بها خبّرتني الطير أم قد أنالها

أقول إذا ما الطير مرت سنيحة

لعلك يوماً فانتظر أن تنالها[3]

وقد يحسب من يقرأ هذه الأبيات والأبيات التي قبلها أن فيها ذلةً مفرطةً لا تليق بكرامة الحب من جهة وتنافي نزاهة الحب العذري وعفته من جهة أخرى. ولكن الواقع أن هذا الثبات على الحب والصبر والحنين برغم ذلك البخل والصدود والهجران والحرمان هو آية العفة والسمو في الحب العذري وأقوى ما ينزهه عن الغريزة ويتسامى به نحو المشاعر الخالصة وأصدق دليل على عظم نفوس عشاقنا العذريين وقد قال كُثَيِّر:

فقد يوجد النِّكْسُ الدنيء عن الهوى

عزوفاً ويصبو المرء وهو كريم[4]

---

(١) المصدر السابق ٣/١٧٦.

(٢) المصدر السابق ٣/١٦٦.

(٣) المصدر السابق ٣/١٦٦.

(٤) المصدر السابق ٣/١٦٩.

فالصّبر والحنين برغم الحرمان هما آية العفّة والصدق في الحب العذري وهما من شمائل ذوي النفوس الكريمة العالية؛ أمّا اللئيم فإنه لا يملك هذه النفس المثالية الكريمة ولا يشعر بأحاسيسها ومتعها الروحية إنما كل همه أن يلتمس لغريزته اللذة الجسدية المبتذلة حيثما وكيفما وجدها؛ على أن بخل عزّة بنوالها وصدودها عن كُثَيِّر وصبره على ذلك بل تذلله وتضرعه إلى جانب كونه دليلاً على عفة الحب العذري لا يدل على أن عزّة لم تكن تبادله نفس الدرجة من الحب ولو أنه يدل على فتور حبها له وقلة مبالاة تجاهه ويتجلّى في كثير من أبياته:

صفوحاً فما تلقاك إلّا بخيلة
ومن مَلَّ منها ذلك الوصل ملَّت
وأبعده نَيْلاً وأوشكه قِلَىً
وإن سُئلت يوماً فشر مسول
وأعجبني يا عَزَّ منك خلائق
كرام إذا عُد الخلائق أربعُ
دُنُوُّك حتى يذكر الجاهلُ الصِّبَا
ودفعُك أسباب المُنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مطلته
أيشتد إن لاقاك أم يتضرع[1]

---

(١) شرح ديوان كثيّرة عزّة ١/ ٣٣.

وكان يحسُّ أحياناً أن سبب صدود عزة عنه أنها كانت تستخف بشأنه وتستقبحه لأنه كان قصيراً دميماً معروق العظام.
ونرى رد الفعل لذلك في نفسه شديداً فيوسعها فخراً بشجاعته:

فإن تصدفي يا عزَّ عني وتصرمي
ولا تقبلي مني خلالا أسومها
فقد أقطع الموماة يَسْتَنُّ آلها
بها جِيَف الحَسْرى يلوح هشيمها
على ظهر خُرجوج يقطّع بالفتى
نِعَافَ الفيافي سَبْتَها ورَسيمها[1]

ويظهر لها أنه رجل محنّك قد خبر أخلاق الرجال وعلم أسرار الحياة فضرب لها الحكم والأمثال بقوله:

وجرّبت إخوان الصفاء فمنهم
حميد الخصال عندنا وذميمها
وأعلم أني لن أسربل جِنَّةً
من الموت معقوداً عليّ تميمها
ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه
يَدَعْه ويغلبه على النفس خِيْمُها[2]

ثم إنه ليتباهى بجماله فإذا ما حسرت عنه العمامة أشرق له

---

(١) منتهى الطلب ٣/١٧٢.
(٢) منتهى الطلب ٣/١٧٢.

محيّا جميل يروق منظره العيون كأنه الدينار الهِرَقْلي. ولا يضيره أن يكون نحيفاً معروق العظام فما ذلك إلاّ من كثرة الأسفار وجوب الفيافي. وهو على ذلك لو وزنته بالقوم لرجحهم جميعاً. ثم يعيّرها ببعلها الذي يكاد يعجز عن تحريك جسمه البدين البطين. ويفخر بما يتحلّى به هو من شمائل لا يتحلّى بها غيره:

متى تحسروا عني العمامة تبصروا
جميل المحيّا أغفلته الدواهن
يروق العيون الناظرات كأنه
هِرَقْلِيُّ وَزْن أحمر اللون وازن
رأتني كأنْضَاء اللجام وبعلها
من الملء انبرى عاجز متباطن
رأت رجلاً أوْدَى السِّفار بجسمه
فلم يبقَ إلاّ منطق وجَنَاجِن
فإنْ أكُ معروق العظام فإنني
إذا وَزَنْتِ القوم بالقوم وازن
وإني لما استودعتني من أمانة
إذا ضاعت الأسرار للسر دافن[1]

وإذا لم تكن عزّة تشعر نحوه بتلك العاطفة المتأججة الجامحة، فهو قد أحبها حُبّاً ملأ دنياه فحيثما سلك رأى صورتها تتمثل له:

---

(١) شرح ديوان كثيّرة عزّة ١/٢٠٣.

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى بكل سبيل[١]

وإذا ما نام رآها في أحلامه:

تجيء بريـاها الصبا كل ليلة
وتجمعنا الأحلام في كل مرقد[٢]

ولقد سلبت لبّه بحيث لم يعد يفقه ولا يسمع ما يقول العذال والوشاة:

يلومك في ليلى وعقلك عندها
رجال ولم تذهب لهم بعقول[٣]

وقد قرع الواشون فيها لك العصا
وإن العصا كانت لذي الحلم تقرع[٤]

وهي بالنسبة له داؤه وشفاؤه فإذا تنسّم رياها انتعشت روحه وطابت:

وقل أم عمرو داؤه وشفاؤه
لديها ورياها إليه طبيب

---

(١) منتهى الطلب ٣/١٦٦.
(٢) شرح ديوان كثيّر عزة ٢/٢٢٤.
(٣) منتهى الطلب ٣/١٦٦.
(٤) شرح ديوان كثيّرة عزة ١/٣١.

الامُ عــلى أم الــولـيــد وحــبُّــهــا
جوى داخل تحت الشراسيف ملهب[1]

بل إنّ حبّه لهـا جعله يعطف على كـل المتيمين. وكيف يلومهم وهو نفسه متبول بعزّة:

فـلا تـزجـر الغـاوين عن تبـع الصبـا
وأنت غَــويّ النفس قِـدْمـاً سقيمهـا
بـعــزَّةَ مَـتْـبُــولٌ إذا هـي فـارقـت
معنًّى بـأسبـاب الهــوى مـا يــريمهـا

وبالرغم من تصرم عصر الصبا والشباب ومـا يعقبهما من مشيب وحلم فإن جذوة حبّه لعزّة لا تزداد إلاّ توقداً. وقد ظل يهيم بها ويحنّ إليها ويخلص لها طيلـة عمره:

وأقصــر عن غَـرْب الشبــاب لِـذَاتُــه
بـعــاقبــة وابـيضَّ منــه الـمَسَــايــح
ولـكـنــه مـن حــب عَــزَّةَ مــضـمــر
خَبَــالا بــه قــد بــطنتــه الجــوانــح
وأصبحت ودعت الصبــا غـيــر أنني
لعــزَّةَ مصف بــالمنــاسب مــادح[2]

بل إنّ حبه لها قد بغّض إليه كل النساء:

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٨٤.
(٢) منتهى الطلب ٣/١٧٦.

أبـى القـلب إلا أم عمــرو وبـغضـت
إلـيَّ نـســاء مـا لـهــن ذنــوب[1]

فـأيُّ حبٍّ أصـدقُ وأوفى من هـذا الحب الـذي امتحنـه الحرمان وكان يزداد على الأيام وتعاقب الأعـوام، بل لم يقضِ عليه حتّى زواجها من رجل آخر. ولعل زواجها هذا كان يؤجج وجده بها ويزيد تلهّفه عليها ضراماً وهياماً:

يقــولـون: ودِّع عنــك ليلى ولا تهم
بــقــاطـعــة الأقــران ذات حــلـيــل
فمــا نقعت نفسـي بمــا أمــروا بــه
وعـجت مـن أقــوالـهــم بـفـتـيــل[2]

وظلّ يتبعها بمودته وعواطفه حتى إلى منزلها، فإذا ما رأى بعلها يضربها ـ غيرة من كُثَيِّر ـ توجّع لها وأبدى تحنانه عليها:

إذا مــا رآنــي بــارزاً حــال دونـهــا
بمَخبـطَةٍ يا حُسْنَ من هـو ضـارب[3]

وظل وفيّاً لها حتى بعد مماتها فلّما ماتت جزع وتفجّع عليها أشد الجزع والتفجّـع ووقـف على رمسها يتحسّـر على عهودهـا ومحـاسنها ويـنـدبها ويـرثيها بـالدمـوع ويستسقي لها رحمـة الله ورضوانه:

---

(١) شرح ديوان كثيّرة عزة ٢/١٩٢.
(٢) منتهى الطلب ٣/١٦٦.
(٣) المصدر السابق ٣/١٧٢.

سِراجُ الدُّجى صِفْرُ الحشى منتهى المنُى
كشمس الضحى نـوامـة حين تُصبـح
إذا مـا مشت بين البيـوت تَخَـزَّلت
ومـالت كمـا مـال النَّزيف المُـرَنَّح
تـعلقـت عَـزَّاً وهـي رُؤْدٌ شبـابـهـا
عَـلاقـة حب كـاد بـالقلبَ يبـرح
أقـول ونِضْـوى واقف عنـد رمسهـا
عـليـك سـلام الله والعين تـسفـح
فهـذا فـراق الحق لا أن تـزيـرني
بـلادك فـتـلاء الـذراعيـن صيـدح
وقـد كنت أبكي من فـراقـك حيـة
وأنت لعمـري اليـوم أنـأى وأنـزح
فيـا عَـزَّ أنت البـدر قـد حـال دونـه
رجيـع تـراب والصفيـح المضـرح
ومـا نـظرت عيني إلى ذي بشـاشـة
من النـاس إلاّ أنت في الـعيـن أملح
ألا لا أرى بعـد ابنـة النَّضْـر لـذة
لشـيء ولا مـلحـاً لـمـن يـتـمـلح
فـلا زال رِمس ضـم عَـزّة سـائـلاً
بـه نعمـة من رحمـة الله تسفـح[1]

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّرة عزّة ١/ ١٩٦ .

ذهبت لذة الدنيا وبهجتها بعد رحيلها، وانطفأت بسمة الأمل من حياته، وخمدت شاعريته وأجدبت دنياه فلم يعد يعجب بشيء ولا يطرب لشيء ولا يرغب بشيء فقد قيل له: ما لك لا تقول الشعر؟ فقال: ذهب الشباب فما أعجب وماتت عزَّة فما أطرب ومات ابن ليلى ـ عبد العزيز بن مروان والي مصر ـ فما أرغب[1].

وأحسب أننا بعد أن سقنا هذه الأبيات لا يمكن أن نؤيد من يزعم أن كُثَيِّراً لم يكن صادق الصبابة وأنه كاذب مُدّعٍ في هواه؛ وإن غزله مجرد غزل تقليدي. فعلى حين زعم ابن سلّام والأصفهاني بأن كُثَيِّراً كان يكذب ويلفقان القصص والشعر ليؤيدا ما زعما، نجد أن ابن أبي حفصة يضرب المثل بكُثَيّر في صدق الصبابة ويجعله في عداد أصدق الذين اشتهروا بالحب العُذري كعُروة والمرقِّش والنهدي وأبي ذؤيب الهذلي وجميل بثينة إذ يقول عن الغواني:

أردين عُروةَ والمُرَقِّشَ قبله
وأخا بني نَهْد تركن قتيلا
ولقد تركن أبا ذُؤيب هائماً
ولقد قتلن كُثَيِّراً وجميلا[2]

وكذلك ربيعة الرَّقّي ضُرب به المثل في الحب العُذري وقرنه مع جميل بثينة وعُروة عفراء الذين سنّوا الهوى:

---

(1) العقد الفريد ٣/٤٦.

(2) الموشى ص ٧٧.

جـــمـيـــل والــكُـثَـيِّــر قــد أحبَّــا
وعُــروة مــن هــوىً لاقــى حِـمَــامــا
هـم سَنُّوا الـهـوى والحـب قـبـلي
ومــا أُلفي لهم فــي النــاس ذامــا[1]

وقد لقي كُثَيِّر من حبه لعَزَّة ما لم يلقَ عُروة والنهدي اللذان أودى بهما الحب:

وعــروة لم يلقَ الــذي قــد لـقيتــه
بـعفــراء والنَّهْــديُّ مــا أتـفجّــع[2]

بقي كلمة أخيرة يجب أن نقولها في تفسير المعنى اللغوي لكلمـة حب كما وردت في بعض المعـاجم؛ وفي منشأ الحب العذري وفي سبب تسميته بهذا الاسم؟

ب ـ الحب العُذري:

١ ـ التفسير اللغوي لكلمة حب:

ذُكِـرَ أن الحبّ مشتق من الإحْباب: وهـو اللزوم والثبات الذي لا بَرَاح معه. وقال الجوهري: بعيرٌ مُحِبٌّ وقد أحبَّ إحْباباً: وهو أن يصيبه مرض أو كسر فـلا يبرح من مكـانه حتى يبَـرَأ أو يموت[3].

(١) طبقات ابن المعتزّ ص ١٦٤.
(٢) شرح ديوان كُثّير عزة ١/٣١.
(٣) الصحاح مادة: حبب.

وقال الزَّبيدي: أحَبَّ البعيرُ: إذا برك فلم يثر. والإحْباب أن يشرف البعير على الموت من شدة المرض فيبرك ولا يقدر أن ينبعث[١]. ومن هذا الكلام ندرك معنى كلام ذلك الأعرابي العُذري الذي قال: إنه من قوم إذا أحبّوا ماتوا.

وقال بعضهم: أصل الحبّ هو الخشبات الأربع التي توضع عليها الجرة ذات العروتين. فعلى هذا سمّي الحبُّ حُبّاً لأنه يتحمل عن محبوبه ثقل ما يوضع عليه. ونجد في هذا آية الخلود. فلو تأملنا سيرة المحبين لوجدنا أنهم ظلوا مقيمين على حبهم مهما لاقوا ممن يحبّون. وقيل الحُب اسم لصفاء المودة. فالعرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونَضارتها: حَبَبُ الأسنان. وقيل: هو من حُب الماء، وهو الإناء الواسع لأنه يمسك بما فيه ويستوفي منه فلا يدخله شيء بعد[٢]. والإحساس الأخير الصادر عن هذه التعريفات يكشف عن آيتي العفة والتوحيد.

٢ ـ أسباب تسميته بالحب العذري:

أمّا أسباب تسميته بالحب العُذري فتعود إلى قبيلة عُذْرة. وهي قبيلة قحطانية على الأرجح[٣]، عرفت بين قبائل العرب بكثرة عشاقها الذين اشتهروا بالصباحة والفصاحة وبعفّة الصبابة

---

(١) التاج مادة حبب.
(٢) الصحاح واللسان والقاموس والتاج مادة حبب.
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/٢٩٧.

بحيث أنهم إذا أحبّوا ماتوا فصاروا رمزاً لهذا الحب العفيف العنيف. فنسب إليهم كل عاشق مثلهم. قال رجل من بني فزارة ليس حيٌّ أصدق في الحب من بني عُذْرَة، ولا تضرب الأمثال إلاّ بهم. قلت يوماً لعُذري: أتعدون موتكم في الحب مزية وهو من ضعف البِنْيَة وضيق الرئة؟ فقال: أما والله لو رأيتم المَحَاجِر البُلْج تَرْشُق بالأعين الدُّعْج من فوقها الحواجب الزُّجُّ والشفاه السُّمْر تَفْتَرُّ عن الثنايا الغُرّ كأنها نظم الدرّ، لجعلتموها اللات والعزى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم[1]. وقيل لأعرابي: ممن الرجل؟. فقال: من قوم إذا أحبوا ماتوا. فقالت جارية سمعته: عُذْرِيٌّ ورب الكعبة. فقيل له: ومم ذاك؟ فقال: في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة[2].

أما لماذا نُسِب هذا الحب إلى قبيلة عُذْرة وحدها بالذات دون قبائل العرب قاطبة فيرجع إلى كثرة ظهور نماذج هذا الحب المثالي فيها: وكثرة ظهور هؤلاء العشاق المثاليين ترجع إلى ما كانت تنعم به هذه القبيلة من استقرار وخصب حيث كانت تنزل البادية العربية شمالي الحجاز إلى جهة العَقَبة على البحر الأحمر في منطقة تسمّى بوادي القُرى (نسبة إلى قُراها الكثيرة)، ولوقوعها على طريق القوافل بين الحجاز والشام والعراق ومصر. وإلى أن الرواة رأوا في متيّمي عُذرة ـ على كثرتهم ـ المثل الكاملة الصادقة

(١) روضة المحبين ص ٣٣٧ مصارع العشاق ١/٣٧. الموشى ص ٨٥.
(٢) روضة المحبين ص ٣٣٦.

لهذا الحب، والألسن المعبِّرة عنه أدق تعبير وأروعه بالإضافة إلى مُثُل التقاليد العربية التي تسيطر على الحياة الاجتماعية في البادية فتخلق هذا اللون المتميز من ألوان الحب الروحي. وبالإضافة إلى المزاج الخاص بأولئك العشاق الذين يدفعهم إلى التوحيد والعفّة والإخلاص دون اللهو والمجون. وربما يرجع السبب أيضاً إلى أن أقدم من عرفه الرواة من أصحاب هذا الحب في العصر الأموي هو عُرْوَةَ بن حِزَام وكان من قبيلة عُذْرَةَ[1].

٣ ـ شعره السياسي:

المرحلة الأولى:

ومن أغراض كُثَيِّر الشعرية المهمة شعره السياسي الذي بدأه ـ كما تشير كل المعلومات ـ بمدح آل بيت الرسول وتأييد حقهم السياسي وهذا يظهر في أخباره وأشعاره التي تحدثت عن توجهاته السياسية؛ ومن ذلك أنه عندما كان يأخذ عطاءه المالي كان يأتي إلى مكتب أحفاد الرسول فينثر عليهم الدراهم وينعتهم بالأنبياء الصغار. ويقول لهم: وا بأبي أنتم الأنبياء الصغار ورب الكعبة. ولكن عاطفته هذه كانت منصرفة إلى أطفال الدوحة النبوية العلوية وحدهم فقد كان محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو أخوهم من أمهم يقول له: هَبْ لي يا عم؟ فيقول له كُثَيِّر: لا لست من الشجرة[2].

---

(١) الحب المثالي عند العرب ص ١٦.

(٢) الاغاني ٩/١٨.

وظهر حُبّه لهم عندما كان يحاجج أعداءهم الذين يرون أن حبهم ذنب أيّ ذنب أما هو فيرى أن هذا الحب هو كفارة كل ذنب ولهذا يقول:

إنّ امـرءاً كـانـت مـسـاوئـه
حـب الـنـبـي لـغَـيـر ذي ذنـب
وبـنـي أبـي حـسـن ووالـدهـم
مـن طـاب فـي الأرحـام والـصـلـب
أتـرون ذنـبـاً أن نـحـبـهـم
بـل حـبـهـم غـفـارة الـذنـب

ولكن بالرغم من هذا الحب الأكيد لهم فإننا لا نجد له أية قصيدة لا في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ولا في مدح علي وأبنائه رضي الله عنهم. وهو ربما مدحهم ورثاهم بشعر كثير بيد أنه فُقِدَ في غالبيته ولم يصلنا منه إلاّ القليل النادر ومن ذلك هذه الأبيات التي رثا فيها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال:

يـا عـيـن بـكّـي لـلذي عـالـنـي
مـنـك بـدمـع مُـسـبـل هـامـل
يـا جَـعْـدَ بَـكـيـه ولا تـسـأمـي
بـكـاء حـق لـيـس بـالـبـاطـل

إن تَستُري الميتَ على مِثْلِهِ
في النّاس من حاف ومن ناعل[1]

وله أبيات أخرى أشار فيها إلى أن عليّاً وأسباطه: الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية هم الخلفاء والأئمة الشرعيون؛ وأنهم هم الذين أوصى لهم النبي بخلافة المسلمين من بعده. وفيها استسقى المطر للحسين الذي استشهد في كربلاء مدافعاً عن هذا الحق:

ألَا إنّ الأئمة من قريش
ولاة الحق أربعة سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه
هم أسباطه والأوصياء[2]
فأنّى في وصيته إليهم
يكون الشك منا والمراء
بهم وصّاهم ودعا إليهم
جميع الخلق لو سمع الدعاء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرٍّ
وسِبْطٌ غَيَّبته كربلاء
وسِبْطٌ لا يذوق الموت حتى
يقود الخيل يقدمها اللواء

---

(١) شرح ديوان كثير عزة ١ / ٢٨١.
(٢) السبط: ولد الولد.

تـغـيَّـب لا يـرى عـنـهـم زمـانـاً
بـرَضْـوَى عـنـده عـسـل ومـاء[1]

ولكن أشعاره الكثيرة في التشيع قالها في تأييد حق الكيسانية في تولي الخلافة وفي تأييد حقها الشرعي. وكان على رأس هذه الفرقة الإمام محمد ابن الحنفية الذي أوصى له النبي بالخلافة بعد أخويه الحسن والحسين رضي الله عنهما. وعندما استولى عبد الله بن الزبير على الحجاز والعراق وَسَجَنَ محمد ابن الحنفية لأنه لم يبايعه، تأثر كُثَيِّر لهذا الحادث وأنشد قصيدة عيَّر فيها ابن الزبير بانهزامه والتياذه بالبيت الحرام الذي لم يرعَ حرمته، عندما فَرَّ من وجه الأمويين. ثم أشاد بشجاعة محمد ابن الحنفية ومدح فضائله فقال:

لـك الـويـل من عيني خُبَيْبٍ وثـابت
وحمـزة أشبـاه الحِـذاء التـوائم[2]
تُـخـبِّـرُ مـن لاقـيـتَ أنـك عـائـذ
بل العائـذ المحبوس في سجن عـارم
ومن يرى هذا الشيخَ بالخَيْف من مِنىً
من النـاس يـعلم أنـه غـيـر ظـالم
وصيَّ النبي المصـطفى وابن عـمـه
وفَـكَّـاك أغـلال وقـاضـي مـغـارم

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٤٤.
(٢) خُبَيْب وثابت وحمزة: هم أبناء عبد الله بن الزبير.

أبى فهو لا يشري هُدى بضلالة
ولا يتقي في الله لومة لائم

ونحن بحمد الله نتلو كتابه
حلولاً بهذا الخَيْف خَيْف المحارم

بحيث الحمام آمن الروع ساكن
وحيث العدو كالصديق المسالم

فما رونق الدنيا بباق لأهله
ولا شدة البلوى بضربة لازم

فلا تجزعن من شدة إن بعدها
فوارج تلوى بالخطوب العظائم

وعندما عاد ابن الزبير إلى العراق ثانية أرسل أخاه عُروة إلى محمد ابن الحنفية يدعوه إلى مبايعته أو يعيده إلى السجن من جديد[1]. ولكن جاءته في تلك الأثناء دعوة عبد الملك بن مروان التي يقول فيها: هذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلو رحمك وعارفو حقك فقال ابن الحنفية لأصحابه: هذا وجه نخرج إليه. وكان معهم كُثيِّر الذي حثّ إمامه على الخروج وأنشد في مدحه وتأييد حقه[2]:

هُديت يا مهديًّنا ابن المهتدي
أنت الذي نرضى به ونرتجي

---

(١) طبقات ابن سعده ٥/٧٣ ـ ٧٨.

(٢) طبقات ابن سعده الصفحة نفسها.

أنت ابن خير الناس من بعــد النبي

أنــت إمــام الحق لسنـا نـمتــري

يـابــن عليٍّ سر ومن مثــل علـيّ

حــتـى تــحــل أرض كَــلْب وَبَـلِي

وقد كان كُثيِّر ذا مكانة أثيرة عند هذا الإمام الذي لا يفتأ يوالي تفقده وإلطافه بالسؤال عن حاله وحال بنيه ويثني على تشيّعه ويحمد تنديده بخصومه[1]:

أقــر الله عــيــنــي إذ دعــانــي

أمــيــنُ الله يُــلطف فــي الـســؤال

وأثــنـى فــي هــوايَ عـليٍّ خــيــراً

ويـســأل عـن بَـنـيَّ وكـيـف حــالـي

وكـيف ذكــرتُ حــال أبـي خُـبَـيْـب

وزلَّــة فــعــله عــنــد الـســؤال

وكان كُثَيِّر يؤكد حبه لآل البيت كلما سمحت له الظروف السياسية وكلما خف الضغط الأموي ومن ذلك مجاهرته بحبهم في عهد عمر بن عبد العزيز الذي تساهل مع الأحزاب والشعراء ومنع سب عليّ وأبنائه على المنابر وهذا ما أغبط الشاعر فأنشد يقول:

لــعــن الله مــن يــســب عــليّــاً

وبــنــيــه مــن سُــوقــة وإمــام

(١) الأغاني ٩/١٦.

أيُسَبُّ المُطهرون جدوداً
والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا
يأمن آل الرسول عند المقام
رحمة الله والسلام عليهم
كلما قام قائم الإسلام(١)

فهو في هذه الأبيات يلعن من يلعن أئمته ويتألم لسبهم وهم من هم أبناء الرسول المطهرون الأصول الكرام الأخوال والأعمام. ويصوّر خوفهم برغم أنهم في بيت الله الحرام حيث لا يروع كائن؛ ويأمن فيه حتى الحمام. ويترحّم عليهم ويهدي إليهم السلام ما قام قائم الإسلام.

المرحلة الثانية:

ولكن ما هي الأسباب التي غيّرت كُثَيِّر وحوّلته من مؤيد لآل البيت وحقهم بالسلطة إلى مؤيد للأمويين وحقهم بالخلافة؟ كان العراقيون يكرهون الأمويين لأنهم يؤمنون بأن الخلافة للعلويين وكان عبد الملك نفسه على يقين من نقمة الشيعة على كل ما هو غير علوي وكان على يقين أيضاً بأن للشيعة عقيدتهم الثابتة وتنظيمهم المستمر وتراثهم الديني والنضالي. ورأى بأنهم إذا أهملوا سوف ينشط أمرهم ويتعاظم شأنهم ولهذا لا بدّ من المبادرة

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/١٩٤.

إلى قمعهم وتمزيقهم ووجد بأنه لا يقوم بهذه المهمة إلّا الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قذف به أهل العراق وأوصاه بسفك دمائهم. فبطش هذا الوالي بالعراقيين وقتل أعداداً كبيرة منهم عندها خاف كُثَيِّر وبادر إلى بلاط عبد الملك وأطلق ولاءه له. ورجا أن يثيب هذا الولاء بالقبول ثم وقف بين يديه وأنشد يقول:

هـــو المرء يجـــزي بـالمـــودة أهلها
ويـحـذو بنعـل المستثيب قبـالهـا[1]

ومنذ ذلك الحين انقلب كُثَيِّر من شاعر للعلويين ولإمامهم محمد ابن الحنفية إلى شاعر للأمويين ولخليفتهم عبد الملك بن مروان. ورأى أن استقرار الخلافة فيهم هو كعودة الأمر إلى نصابه والحق إلى أصحابه. وجعل استقلالهم بها وانتصارهم على جميع أعدائهم تأييداً وتسديداً من الله تعالى ولهذا قال لعبد الملك:

أبـــوكـم تـــلافى يـــوم نـقعـــاء راهط
بني عبـــد شمس وهي تنفى وتقتـل
أبـــوك حـمـى أمـيـــة حـيـــن زالـت
دعـــائـمـهـــا وأُصْـحِـــر لـلضِّـراب
وكـــان الـــمُـلك قـــد وهـــيت قـــواه
فـــرد الـملك منهـــا فـي الـنـصـــاب

ونعت عبد الملك بإمام الهُدى الذي سدد الله رأيه وحنّكته التجارب فقال فيه:

---

(1) منتهى الطلب ٣/٣١٩.

إمـــام هـــدى قـــد ســـدد الله رأيـــه
وقـــد أحكمتـه مـــاضيـات التجـــارب

وأخذ كُثَيِّر يدعو له ولأبنائـه بخلود الملك وبقاء المجد لئلا يفقد الخير والرخاء الذي يفيض عليه من أيديهم الكريمة فيقول:

وأنـت فـلا تُـفـقـد ولا زال منـكـم
إمـام يُـحَيَّـا فـي حجـاب مُـسَـدَّن
ذكـرتَ عـطايـاه ولـيسـت بحـجـةٍ
عليـك ولكن حجـة لـك فـاثْنِنِي[1]

ثم أشاد باستخلاصه للخلافة ممن لم يسلموها له عن مودة بـل انتزعهـا منهم انتـزاعـاً بحـد السيف. وأظهـر بـأن حـروب عبد الملك من أجل الخلافة إنما كانت للحفاظ على حق مشروع كادت تغتاله أيدي أولئك الطامعين. وبيّن بأن الناس قد ولّوه بعد أن جرّبوه ووجدوه قد ملأ سهول البلاد وجبالها أمناً وخيراً:

أحــاطت يـداه بـالخـلافـة بعـدمـا
أراد رجـال آخـرون اغـتـيـالـهـا
فـمـا تـركـوهـا عَنْـوَة عـن مـودة
ولكن بحـد المشـرفي استقـالهـا[2]

---

(١) مُسَدَّن: مسدول. اثنني: اعطني مرة ثانية: اللسان مادة ثنى.
(٢) عَنْوَة: هنا بمعنى: طاعة. بلوه: خبروه. أدَبَّ: ملأ.

بلـوه فـأعـطوه الخـلافـة بعـدمـا
أدَبَّ البـلاد سهـلهـا وجبـالـهـا[1]

وظلَّ كُثَيِّر يضرب على وتر التأكيد بأن عبد الملكْ كان في جميع حروبه على سُنَّة الحق الصريح؛ وأن كل الذين حاربهم هم أعداء متمردون على ذلك الحق الثابت له:

إذا مـا أراد الغـزو لم تـثنِ عـزمـه
حَصَـان عليهـا نـظم دُرٍّ يـزينـهـا
ولـكـن مـضـى ذو مِـرَّة مـتـثـبـت
لسُنَّـة حـق واضـح يستبينهـا
وحـرب إذا الأعـداء أنشت حيـاضهـا
وقَلَّب أمـراسَ الســواني محـالـهـا
وَرَدْتَ عـلى فُـرَّاطِهـم فـدهمـتـهـم
بـأخـطار مـوت يلتهمن سِحـالهـا[2]

وكان شاعرنا يترنّم دائماً بالنغمات التي يحلو لعبد الملك أن يسمعها بصدد الخلافة. ويبرز المعاني التي توافق خلفاء بني مروان حولها؛ إلى درجة أنه حينما عدد الخلفاء الذين تولّوا الخلافة بعد الرسول أسقط منهم خلافة علي بن أبي طالب وخلافة ابنه الحسن فقال:

---

(١) منتهى الطلب ٣/٣١٧.
(٢) منتهى الطلب ٣/٣١٧.

إنّ الخلائفَ بعد الرسو
ل لله كلهمُ تابعا
شهيدان من بعد صِدِّيقهم
وكان ابن حرب لهم رابعاً
وكان ابنه بعده خامساً
مطيعاً لمن قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى
وكان ابنهِ بعده سابعا(١)

فهذه الأبيات تشير إلى أن الخلفاء الذين جاءوا بعد الرسول الأكرم وساروا على سُنَّة الله ورسوله هم أبو بكر الصدِّيق والشهيدان عمر وعثمان ورابعهم معاوية بن أبي سفيان والخامس ابنه يزيد والسادس مروان بن الحكم والسابع ابنه عبد الملك.

وكان أكثر الخلفاء الذين أحبهم وأخلص لهم من بني مروان هو الخليفة عمر بن عبد العزيز. فقد مدحه بنغمة تنبض بالولاء والصدق وتشهد بالإخلاص والحق وذلك لإنصاف هذا الخليفة الورع لآل البيت ولقربه منهم ولكفّه الناس عن إيذائهم ولمنعه سبّ الإمام علي على المنابر ومما قاله كُثيّر في مدحه:

وَلِيْتَ فلم تشتم علياً ولم تُخِفْ
برياً ولم تقبل إشارة مجرم(٢)

---

(١) الأغاني ١٢/٤١ و ٩/١٤.
(٢) شرح ديوان كُثيّر عزة ٢/١٢٣.

ثم أشاد كُثَيِّر بعزوف هذا الخليفة التقي عن الدنيا الفانية وعمّا فيها من مباهج ومغريات. وأظهر زهده بالخلافة التي سعت إليه على كره منه. وذكر خشيتـه لله وانشغالـه عن دنياه، وعمله للآخرة التي هي أصلح للمؤمن وأبقى؛ قال:

وقد لَبِسَتْ لبس الهَلُوكِ ثيابها
تـراءى لـك الـدنيـا بكف ومعصم
وتـومض أحيـانـاً بعين مـريـضـة
وتبسم عن مثـل الجُمـان المنـظم
فـأعـرضت عنهـا مشمئزّاً كـأنمـا
سقتـك مـدوافـاً من سمـام وعلقم
ومـازلـت تَـوَّاقـاً إلى كـل غـايـة
بلغت بها أعلى البناء المقدم
فلمـا أتـاك المُلكَ عفـواً ولم يكـن
لـطالـب دنيـا بـعـده من تَـكـلم
ومـا لك إذا كنت الخليفـة مـانـع
سـوى الله مـن مـال رغبـت ولا دم
تـركت الـذي يفنى وإن كـان مـوفقـاً
وآثـرت مـا يـبقـى بـرأي مـصـممً
وأحـرزت بـالفـاني وشمـرت للذي
أمـامـك في يـوم من الشـر مـظلم[1]

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢/١٢٥.

وتحدث بعد ذلك عن استقامته وصدق تديّنه وتقواه. وعن اقتدائه بأفعال السلف الصالح. وبيّن عدله الـذي شمل جميع المسلمين فقال:

نـزور امـرأ أمـا الإلـه فيتـبقـى
وأمـا بفعـل الصـالحين فيأتمي

وأظهـرت نـور الحق فـاشتـد نـوره
على كـل لبس بـارق الحق مـظلم

تـكلمـت بـالحـق المبيـن وإنـمـا
تـبيـن آيـات الـهُـدى بـالـتـكـلم

وصـدقت بالفعـل المقـال مـع الـذي
أتيت فـأمـسى راضيـاً كـل مسـلم

فمـا بين شرق الأرض والغـرب كلهـا
مـنـادٍ ينـادي مـن فصيـح وأعجـم

يـقـول أميـر الـمؤمـنيـن ظـلمـتـني
بـأخـذ لـدينـار أو بـأخـذ لـدرهم

ولا بسطِ كف لامـرىء غيـر مجـرم
ولا السفك منه ظالما مـلء محجم[1]

أمّا الخليفة الثالث من خلفاء بني مروان الذي مدح الشاعر سياسته فهو يزيد بن عبد الملك؛ فقد أشاد باتساع ملكه وبلوغه من المجد والسؤدد ما لم يبلغه الساعون غيره. وبلغت أفضـاله

(١) شرح ديوان كُثيّر عزة ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٧.

وبره لمن يمحضونه الود ولذوي رحمه ما لم يفضله عليهم سواه. وأثنى على حلمه وعفوه عن الطريد الراغب بولائه وتقريبه له. وأما المعروف الذي يغمر فيه القريب والبعيد فهو سجية له معهودة فيه. قال الشاعر:

إلى الأبيض الجَعْد ابن عاتكة الذي
له فضل ملك في البرية غالب
ولم يبلغ الساعون في المجد سعيه
ولم يفضلوا أفضاله فى الأقارب
جزيل الجوازي عن صديقك نصره
وقربت من مأوى طريد وراغب
رأيتك والمعروف منك سجية
تعم بخير كل جاد وغائب[1]

ويمدحُهُ في قصيدة أخرى عندما جاءت الوفود لتهنئته قال فيها:

أمير المؤمنين إليك نهوى
على البُخت الصَّلادِم والعُجوم
فكم غادرن دونك من جهيض
ومن نَعْل مطرحة جذيم
إذا اتخذت وجوه القوم نصباً
أجيجَ الواهجات من السموم

(١) المصدر السابق ٢/ ١٣٣.

يـزرن عـلى تـنـائـيـه يـزيـداً
بـأكـنـاف الـمـوقـر والـرمـيـم
تـهـنـئـه الـوفـود إذا أتـوه
بـنـصـر الله والـمـلـك والـعـظـيـم[1]

فهو هنا يقول ليزيد قصدناك ـ يا أمير المؤمنين ـ على ظهر هذه الإبل النجيبة القوية التي تطوي بنا الصحارى المترامية الأطراف الملتهبة الرمال المتوهجة بسمومها. وقد أجهدتها هذه الرحلة؛ فكم أجهضت في طريقها إليك من جنين، وكم خُفّ تقطعت تعباً فتركتها لعيال الطريق ولكننا لم نبالِ بما لاقينا ولم يثننا التنائي. يهزنا الشوق ويحدونا الواجب مع الوفود لنقدم إليك التهنئة على ما حباك به الله من نصر وملك عظيم. والملاحظ أنه يلمّح في البيت الأخير من هذه الأبيات، للحق الإلهي الذي يدّعيه بنو مروان في استحقاقهم الخلافة.

وقد مدح بالإضافة إلى عبد الملك وعبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ـ وهم أشهر خلفاء بني مروان ـ بشر بن مروان وأخيه عبد العزيز وابنه أبي بكر. وهو لم يتطرق في مدائحه لهؤلاء الأمراء إلى مسألة الخلافة وإنما اقتصر على تمجيد ما كان يتحلّى به كل واحد منهم من شجاعة وحزم وحلم ووقار واصطناع للمعروف وبرّ وصلة رحم وعفة نسب مصفّى وحسب حافل بالتليد.

(١) شرح ديوان كُثيّر عزّة ٢ / ١٢٩.

على أني أقول بعد كل ما قدمت إن حبّه وولاءه للأمير الجواد المنصف عبد العزيز بن مروان ولابنه الخليفة الصالح عمر الخيرات لم يكن حبّاً وولاءً خالصاً بحيث يمكن القول أنه قد حلّ محل حبّه وولائه للإمام عليّ وآل البيت. كما إن مديحه لهما لم يكن خالصاً من المصلحة المادية، فقد كان شاعراً يقتات على قريحته ويتكسّب بصناعته الفنيّة.

ولو أنه التزم بتحقيق تبعات ما يؤمن به من حق الإمام علي وأبنائه في الخلافة إذن لكان أول ثائر من أجل ذلك الحق وأول شهيد في سبيله. ولكن لا شك أنه لما رأى سيف الحجاج، فوق رأسه، أيقن أن البكاء على خلافة عليّ وأبنائه وعلى قبور شهدائهم، ليس كالبكاء على عَزَّةَ وأطلالها، فطوى تلك الصفحة الناصعة بحبه للنبي وتشيّعه لأبنائه وأوصيائه وفتح صفحة جديدة من المراوغة والنفاق بمدحه لبني مروان وقد عبّر شعره السياسي عن هاتين الصفحتين المختلفتين اللتين تعكسان هاتين المرحلتين المتناقضتين من حياته السياسية أدق وأصدق تعبير. ويلي هذين الغرضين الكبيرين، أغراض أخرى أقل أهمية هي التالية:

٣ ـ المدح:

هناك أشخاص مدحهم كُثَيِّر بيد أننا لا نكاد نعرف عنهم شيئاً لأن المقطوعات التي مدحهم بها خلت من الإشارة إلى أخبارهم وبعضها لم يذكر أسماءهم. ولا نشك أن هذه المقطوعات القليلة كانت قصائد مطوّلة مجوّدة على نمط مدائحه

الأخرى التي عرفنا مذهبه فيها بالإطالة والإجادة في حين لم نجد من مدحه لهؤلاء الأشخاص إلّا البيت والبيتين والثلاثة على نحو قوله في أحدهم الذي اشتهر ببعد الصيت وطيب الثناء وبحلمه العظيم وبعده عمّا يثلب المروءة وترحيبه بالضيف وحمايته للجار وفنائه الرحب الأكناف وذلك بعد أن يستهلّ القطعة بالتغزّل بعَزَّةَ:

وأبعده سمعاً وأطيبه نَثا
وأعظمه حلماً وأبعده جهلا
وأقوله للضيف أهلاً ومرحبا
وآمنه جاراً وأوسعه حبلا[1]

أو على نحو قوله في رجل آخر وقد مدحه بالحلم والكرم أيضاً:

الحلم أثبت منزلاً في صدره
من هضب صندد حيث حلّ حيالها
ولَوجهه عند المسائل إذا غدا
وغدت فواضل سيبه ونوالها
بالخير أبلج من سقاية راهب
تُجلى بموزن مشرف تمثالها[2]

أو على نحو أبياته في رجلين من بني الحكم مدحهما ولم

(١) شرح ديوان كُثيِّرة عزّة ٢ / ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ١٧٦ .

يعطياه فقال يبدي رضاه واحتشامه عن الضراعة لهما وعن هجائهما أيضاً:

دع عنك سلمى إذا فات مطلبها
واذكر خليليك في بني الحَكَم
ما أعطياني ولا سألتهما
إلا وإني لحَاجِزي كرَمي
إني متى لا يكون من نوالهما
عندي بما قد فعلت أحتشم
مبدي الرضا عنهما ومنصرف
عن بعض ما لو فعلت لم أُلَم
لا أنْزُر النائلَ الخليلَ إذا
ما اعْتَلَّ نزر الظؤور لم تَرَم[1]

ونجد له أبياتاً في مدح رجل من خزاعة لعله عبد الرحمن بن أبريق الأزدي الذي قصده ليستعين بجائزته على مهر أُم الحويرث التي أراد أن يتزوجها بعد عَزَّةَ. وقد ذكر في هذه الأبيات سحاباً استسقاه للممدوح ووصف قبيلته بكثرة العدد فقال:

فقلت لهم لما رأيت وميضه
ليروِ به أهل الهجان المُكَشَّح

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢/٦٦.

قبـائـل من كعب بن عمـرو كـأنهم
إذا اجتمعـوا يـومـاً هضـاب المُضَيَّـح
تـحـل أدانـيـهـم بَـودَّان فـالـشـبـا
ومسكن أقصـاهم بسهـل منصـح[1]

٤ ـ الرثاء:

والرثاء في شعره قليل بشكل ملحوظ، وإذا استثنينا بعض مراثيه السياسية في بني مروان فإننا لا نجد له سوى هذه الأبيات الأربعة في رثاء رجل يدعى «أبا وهب» يصفه بأنه لم يكن مسعِّر حرب على أنه من فرسانهـا الذين لا يعيـون بها إذا هي أقبلت ولا يكرهون خوض معمعانها حيث يقول:

لتبـك البـواكي المبكيـات أبـا وهب
على كـل حـال من رخـاء ومن كـرب
أخـا السلم لا يعيـا إذا هـي أقبـلت
عليـه ولا يجـوي معـانقـة الحـرب
فـإن تـك قـد ودعـتنـا بـعـد خِلَّة
فنعم الفتى في الحين أنت وفي الركب
سقى الله وجهـاً غـادر القـوم رسمـه
مقيمـاً ومـروا غـافلين عن شغب[2]

(١) المصدر السابق ٢/١٦٦.
(٢) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢/١٧٣.

٥ ـ الهجاء:

والهجاء في شعره قليل أيضاً لا يكاد يؤلف موضوعاً بارزاً فيه على الرغم من كثرة الخصومات السياسية التي كانت بين شعراء القبائل في عصره ويبدو أن كُثيِّراً لم يكن ميَّالاً للمنازعة والمهارشة على نحو ما تمثلت على مسرح المربد في نقائض جرير والأربعين شاعراً(١). ولو أننا نجد مثلاً من تلك النقائض في المهاجاة التي وقعت بينه وبين الأحوص والحزين الكناني وأبو علقمة الخزاعي بسبب ادعائه النسب في قريش. أمّا دواعي هجائه فترجع إلى أربعة دوافع. الدافع الأول: الشمم والأنفة من الضيم كما ترى ذلك في أبياته التي هجا فيا بني المسور بن إبراهيم حينما وجدوه يرعى إبله في حماهم فضيّقوا عليه وأساءوا جواره فقال:

أبت إبلي ماء الرَّداةِ وشَفَّها
بنو العم يحمون النَّضِيح المُبَرّدا
وما يمنعون الماء إلّا ضَنَانة
بأصلاب عُشْرَى شوكها قد تخددا
فعادت فَلَم تَجْهَد على فضل مائه
رياحاً ولا سقيا ابنَ طَلْقِ بنِ أسعَدا
إذا وردت رَغباء في يوم وِردها
قَلُوصى دعا إعطَاشَه وتَبَلَّدا

---

(١) النقائض.

فـإنـي لأسـتـحـيـيكـم أن أذِمَّـكـم

وأكـرم نفسي أن تسيئوا وأُحمـدا[١]

وأبياته هذه أقرب إلى العتاب منها إلى الهجاء، كما نلمح ذلك في الأول إذ ينعتهم «ببني العم» ولكنها في الواقع أبلغ أنواع الهجاء. فهو يقول لهم إني لأستحي ويعزُّ عليَّ أن تسيئوا إليَّ فتذمّون وأنا أكرم نفسي عن هجائكم فأحمد. وبهذا الاستعلاء والترفّع ظهر عليهم. أمّا قذفهم بصريح العيوب فذلك هو السباب المحض وهو ما لا يسلكه الفحول في أهاجيهم.

وهجا نُصَيْب على أثر المفاخرة والمشاجرة التي وقعت بينهما عند أبي عبيدة بن زمعة والتي انتهت بسقوط كُثَيِّر على الأرض[٢]. وقد كان نُصَيْب أسود يكنّى أبا الحجناء فقال كُثَيِّر يهجوه:

رأيت أبا الحَجناء في الناس جائزاً

ولـون أبي الحجنـاء لـون البهـائم

تـراه عـلى مـا لاحـه مـن سـواده

وإن كان مظلوماً له وجه ظالم[٣]

ولا شك أن سبب هجائه لنُصَيْب ليس إلّا الكبرياء والغيرة والحسد. أمّا الدافع الثاني فهو سياسة بني مروان التي استهدفت

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢/ ٥.
(٢) الأغاني ١/ ٣٦٦.
(٣) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢/ ١٤ ـ ١٥.

تهييج العصبيات القبلية كما تمثلت في المهاجاة التي بعثه عبد الملك بن مروان لإثارتها بين قبائل الكوفة فاشعل فتيلها بتنصّله من خزاعة وبانتسابه إلى قريش. فتناوشته شعراء القبيلتين وقد جاءت على شكل نقائض.

فعندما قال كُثَيِّر مفاخراً الأحوص الأنصاري بقريش بعد ادعائه النسب إليها:

أيا خُبث أكرم كنانة إنهم
مواليك إن أمر سما بك مُعْلق
بنو النَّضر ترمِي من ورائك بالحصى
أولُو حسب فيهم وفاء ومصدق
يفيدونك المال الجزيل ولم تجد
لملكهم شبهاً لو أنك تصدق
إذا ركبوا ثارت عليك عجاجة
وفي الأرض من وقع الأسنة أوْلَق[1]

فأجابه الأحوص على نفس الوزن والقافية:

ستأبى بنو عمرو عليك وينتمي
لهم حسب في جذم غسَّان معرق
فإنك لا عَمْراً أباك حفظته
ولا النَّضْر إن ضيعت شيخك تلحق

(١) تاريخ دمشق ١٦/٧٥٧.

ولم تُدرك القوم الذين طلبتهم
فكنت كما كان السقاء المعلق
يجذمَه ساق ليس منها لحاؤها
ولم يك عنها قلبه يتعلق

أمّا الدافع الثالث فهو العقيدة وحب أئمته والتشيع لهم فقد هجا عبد الله بن الزبير عندما زجّ إمامه محمد ابن الحنفية في سجن عارم وأراد أن يحرقه فقال:

لك الويل من عيني خُبَيْبٍ وثابتٍ
وحمزة أشباه الحِداء التوائم
تُخبّر من لاقيت أنك عائذ
بل العائذ المظلوم في سجن عارم

وأما الدافع الرابع لهجائه فهو حبّه لعَزَّةَ. فقد هجا قومها بني ضَمْرَةَ وزوجها. فقال في هجائه لبني ضَمْرة وهم من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقد أمضّى ولم يفحش:

لا بأس بالبزواء أرضاً لو أنها
تطهر من آثارهم فتطيب
إذا مدح البكريُّ عندك نفسه
فقل كذب البكريُّ وهو كذوب
هو التيس لؤماً وهو إن راء غفلة
من الجار أو بعض الصحابة ذيب(١)

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ١/٤٨.

فهو يرميهم بالإثم والفساد والكذب واللؤم والغدر والإغارة على محارم الجار والصديق. أمّا بعل عَزَّةَ فيهجوه بالذفر والجهل على نحو قوله:

وماحَسَبتْ ضَمْرِيَّةٌ جَدَويّةٌ
سوى التّيْس ذي القرنين أنّ لها بعلا
فأبلغ أبا الذفراء والجْهلُ كاسمه
ومن يغوِ لا يَعْدَم على غيّة عَذْلا

ونعته بالخنزير فقال:

يكلِّفها الخنزير شتمي وما بها
هوانيْ ولكن للمليك استذلَّت

ويشبهه بالعجوز المنحنية الظهر، وبالامتلاء الشديد والبطنة التي أعجزته عن الحركة:

رأتني كأشلاء اللجام وبعلها
من الملء انبرى عاجز متباطن[1]

وهؤلاء الذين ذكرناهم هم كل من هجاهم وتلك هي دوافع هجائه لهم؛ وهناك رجل واحد لا نعلم من أمره شيئاً قد هجاه ببيت واحد وهو قوله:

بصاحب لك ما واليته غلظت
منه النواحي وإن عاتبته جمدا

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ١/٢٠٤.

وقد رأينا أن في هجائه حدة الهجاء وقسوته وإيلامه الممعن. ولكن ليس فيه تبذل ولا تهتك ولا إفحاش.

٦ ـ الفخر.

أمّا الفخر فنوعان: فخر بالنفس وفخر بالقبيلة: والفخر بالنفس هو بدوره قسمان: قسم يفخر فيه بمخايله الجميلة وقسم يفخر فيه بشمائله الحميدة. ولا شك أن فخره بنفسه وخاصة فخره بالقسم الأول هو انعكاس شديد لما كان عليه من قبح وقِصَر وعشابة وما يسببه له ذلك من مهانة وصغار-يراها في نظرات الناس إليه واستخفافهم بشأنه. فراح يزعم أن هذا الوجه الدميم الأقيشر الأبرش يسبي العيون، وأنه في إشراقه وتلألئه كالدينار الهرقلي الذي كان يصنع من الذهب الخالص:

متى تَحْسِروا عنّي العمامة تبصروا
جميل المحيا أغفلته الدواهن
يروق العيون الناظرات كأنه
هرقلي وزن أحمر التبر وازن

وإنه مع بهاء محيّاه مهيب الطلعة يثير غيرة العذارى وتحاسدهن على من يخصها بنظرة أو حديث كما يبدو في هذه الأبيات التي وصف فيها هيبته التي ترد الطرف. وجلالة مجلسه بينهن:

وكنت إذا ما جئت أجللن مجلسي
وأظهرن مني هيبة لا تجهما

يحـاذرن مني غيـرة قـد علمنهـا
قـديمـاً فمـا يضحكن إلّا تبسـمـا
يكللن حَـدَّ الـطرف عن ذي مهـابـة
أبـان أولات الـدل لـمـا تـبـسـمـا
تـراهـن إلاَّ أن يـؤديـن نـظرة
بـمؤخـر عـين أو يـقلبـن معـصـمـا
كـواظـم مـا يـنـطقـن إلا مـحـورة
رجـيعـة قـول بـعـد أن يُتـفهّـمـا
ولـكـنـه إذا مـا قُـلن قـولاً يـسـره
أسـر الـرضـا في نفسـه وتجـرمـا

وافتخر بقوته وشجاعته، فهو قوي وشجاع، وإن كان جسمه كأشلاء اللجام مهزولاً معروقاً لم تبقَ فيه كثرة الأسفار إلا العظام. وإنه ندٌّ لغيره فلا يعيبه ما لا يعاب به الرجال. كما نتبيّن ذلك في أبياته التالية التي يظهر فيها رد الفعل مما كان يعانيه من دمامة وقِصَر إذ خاطب بها عَزَّةَ عندما رآها تزدري منظره فقال:

رأت رجـلاً أودى السفـار بـوجهـه
فـلم يـبـقَ إلا مـنـظر وجـنـاجـن
فـإن أك مـعـروق العـظام فـإنـني
إذا وزن الأقـوام بـالـقـوم وازن
وإن أك قصْـراً في الـرجـال فـإنني
إذ حـل أمـر سـاحتي لـطويـل[1]

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ١/٧.

ويبرهن بأن القِصَر والدمامة لا تصمان الرجل بالصغار والهوان كما إن الجسامة والقسامة لا تسمان الرجل بالعظمة والمجادة. فالرجل يجب أن يقاس بكرم النجاد والشمائل:

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
وجربت الأمور وجربتني
وقد أبدت عريكتي الأمور
وما تخفي الرجال عليّ أني
بهم لأخو مثاقبة خبير

وافتخر كثيراً بحفظه للسر وسلامة طويته وكرمه على نحو قوله[1]:

أتى دون ما تخشون من بث سركم
أخو ثقة سمح الخلائق أروع
ضنين ببذل السر سمح بغيره
سليم وما كانت له الشمس تطلع

أمّا فخره بقبيلته فقليل لا نجد منه إلّا أبياتاً لا ندري في أي قبيلتيه قالها فهل فخر بخزاعة أم بقريش؟ وذلك حيث يترنم بقوله:

ونحن منعنا من تهامة كلها
جنوب نقا الخوار فالدمث السهلا

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/٧٥٦.

بكــل كميت مجفـر الــدف سـابــح

وكــل مَــزاق وردة تـعـلكِ الـنِّـكْـلا

فسائـل بقـومي كـل أجـرد سـابـح

وســل غنمـاً رُبِّي بضَمْــرة أو سخـلا

ســواء كـأسنــان الحمـار فــلا تـرى

لذي كرَة منهم على نـاشىء فضلا[1]

وقال أيضاً:

ونحن غـيــارى دون كــل خَــرِيــدة

تُكنُّ أديمــاً واضحــاً وشــوىً عبــلا

ويؤخــذ منــا العَقْــلُ دون دمــائـنــا

ونــأبى فــلا نستــاق من دمنـا عقــلا

ونحمي إذا اشتــد الهيــاج نســاءنــا

ولم ير ذو عين لنسوتنا حجلا[2]

لقد كان فخره بنفسه انعكاساً لما كان يحسّه ويراه من صغار وازدراء في أعين الناس بسبب قصره ودمامته.

أما فخره بقبيلته فهو يعد فيه كل صفات الفروسية وفضائلها التي تعتد بها العرب من الشجاعة في الحروب وحماية الحمى وعِزَّة الجانب والذياد عن الخرائد ثم يلقي شعـاعاً على الحيـاة

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢ / ١٨.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٠٩.

الحرة التي تحياها القبيلة المتمثلة بالتكافل ،والتكافؤ اللذين يعيشهما ويتمتع بهما أبناؤها.

٧ ـ العتاب والشكوى.

ولم تقتصر موضوعات شعره على الغزل العذري والمديح السياسي والهجاء والفخر، بل نجد له أبياتاً في خذلان بني العم يقول فيها:

غنيت فلم أرددكم عند بغية
وحجت فلم أكددكم بأصابعي
أودُ لكم خيراً وتطرحونني
أحار ابن كعب لاختلاف الصنائع
وكيف لكم قلبي سليم وأنتم
على حسك الشحناء حنو الأضالع
وإني لمستأن ومنتظر بكم
على هفوات فيكم وتتابع
وبعض الموالي يُتقى زيغ رهطه
كما تتقي رؤوس الأفاعي القواطع
أحاذر أن تلقوا ردى ومطيكم
خواضع تبغيني جِمام المصارع[1]

فهو يعاتبهم ويثرّبهم ويقول لهم: عندما غنيت وجئتموني

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزَّة ٢/٩.

لم أرددكم عن مطلب وعندما أعدمت واحتجت لم أكددكم بأظافري. وإني لأود لكم الخير وإن قلبي لسليم لا يحمل لكم إلاّ المحبة. في حين أنكم تجافونني وتطوون صدوركم على حسك الحقد والعداوة. وإني لأشفق وأحاذر أن ينالكم أذى، أو أن تلقوا ردى بينما مطية حقدكم وشحنائكم تتعقبني بالشرور والمهالك وتبلغني مصارع الحمام. وإن من أبناء الأعمام لمن يتقى زيغ أحقادهم وغدراتهم اتقاء رؤوس الأفاعي الخبيثة ولكني مع ذلك متحلم عن هفواتكم المتتالية ومنتظر بكم الهداية والصلاح والرشاد والسداد. وعلى نحو قوله أيضاً يشكو عقوق بني العم:

ما بال مولى أنت ضامن غيّه
فإذا رأيت الرشد لم يرَ ما ترى
وترى المساعي عنده مطلولة
كالجَوْد يمطر ما يحس له ثرى
فالله يجزي بيننا أعمالنا
وضمير أنفسنا ويوفى من جزى[1]

٨ ـ وصف الغمام والمطر.

ولا يمكن أن نغفل ونحن ندرس المواضيع الهامة في شعره تلك المواضيع التي تتصل بحياته البدوية وتمثل صفحة واسعة منها؛ وتستأثر بمطالع أغلب قصائده ومقطوعاته، وأعني بها وصف

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ٢ / ١٣.

الغمام والمطر واستقاء الحبيب ومنازله وأطلاله ورسومه أو للممدوح وأكنافه ودياره أو للمرثي ورمسه. . . ومن ذلك ما قاله كُثَيِّر في هذا السحاب الذي ساقه في شعره وسار به على منازل حبيبته يسقيها ويرويها منزلاً منزلاً ولم يقف عند منازلها بل عمّ به كل نجد والحجاز واليمن والشام. . .

سقى أمَّ كُلْثُومٍ على نـأى دارها
ونسوتها جَوْنَ الحَيَاثم باكر
أحمُّ رَجُوفٌ مستهل ربابُه
له فِرَقٌ مُسْحنفرات صوادر
تَصَعَّدَ في الأحناء ذو عَجْرَفِيَّة
أحَمَّ حَبَرْكى مرجف متماطر
وأعرض من ذَهْبان مُغرورق الذُّرى
تَرَيَّعَ منه بالنطاف الحَوَاجِز
أقام على جُمدان يوماً وليلة
فجمدان منه مائل متقاصر
وعَرَّس بالسكران يومين وارتكى
يجرُّ كما جَرَّ المكيث المسافر
بذي هَيْدب جَوْن تَنَجَّزُه الصَّبا
وتدفعه دفع الطَّلا وهو حاسر
وسُيِّلَ أكناف المرابد غدوةً
وسيل عنه ضاحك والعواقر

فأمسى يسحُّ الماء فوق وُعَيرة
له باللوى والواديين حوائر
فاقلع عن عُشٍّ وأصبح مزنة
أفاءً وآفاق السماء حواسر
فكل مسيل من تِهامة طيِّبٌ
تسيل به مُسْلَنْطَحَات دعائر[1]

وهكذا حدا هذا السحاب فعرّس به على منازل الحبيبة منزلاً بعد منزل يسقيها ويعلها ويغاديها بزخات هيدبه ووَدْق سبْله. ثم فرقه ونشره على أرجاء نجد والحجاز، وأرسله على أنحاء اليمن والشام لتنعم بهذا الخصب والربيع الذي شمل وروى كل ما حولها من بقاع لينعم هو بحلولها وإقامتها ما دام لها هذا الخصب والربيع الواسع.

ويكشف هذا التعلق الشديد بالسحاب ووصف الغمام والمزن ذلك الوصف المفعم بالحياة والآمال عن عمق صلة هذا الموضوع بحياة البادية الذي انعكس انعكاساً عميقاً قوّياً في شعره. فلا تكاد تجد له قصيدة إلّا يستهلها بالوقوف على المنازل والأطلال يسائلها ويستسقي لها المطر الذي تنتعش به الأرض ويجدد فيها الحياة حتى يترنم مَكّاؤها، كما يشدو هو فيقول:

لعَزَّةَ أطلال أبت أن تكلما
تهيج مغانيها الطروب المتيما

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ١/٢٢١.

أبت وأبي وجدي بعَزَّةَ إذ نأت
على عدوَاء الدار أن يتصرما
ولكن سقى صوب الربيع إذا أتى
على قَلَهِيٍّ الدار والمُتَحَيِّما
بغادٍ من الوَسْمى لما تصوبت
عثانين واديه على القعر رُيَّما
سقى الكُدر فاللّعْبَاء فالحمى
فلوذ الحَصى من تَغْلَمين فأظلما
فأروى جنوب الدونكين فضاجعاً
فذر فأبلى صادق الودق أسحما
تشج رواياه إذا الرعد رجها
بشابه فالقهب المزاد المخذلما
فأصبح من يرعى الحمى وجنوبه
بذي أفق مَكّاؤه قد ترنما[1]

فليس هناك ما هو أحب إليه ولا أعظم عنده من أن يهب لها الغمام ويزفّه إلى مضاربها مع جلجلة حادي الرعود ووميض البروق التي تصحبه كأنها بوارق البشائر وطبول الأعراس وكأنه يهب لها كل ما يهب الربيع للحياة من ازدهار.

ونحن لا نكاد نطالع له قصيدة إلّا يستهلها بالحديث عن المطر على نحو ما رأينا من قبل وعلى نحو ما نرى في قوله:

---

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزة ١ /١٦٣.

إذا استدبرته الريح كي تستخفه
تراجع ملحاح إلى المكث مرجف
ثقيل الرحى واهي الكفاف دنا له
ببيض الربى ذو هيدب متقصف[1]

أو يختم به قصيدته كما في القصيدة التي تغزّل فيها بعزّة ووصف ارتحال ظعونها:

وإني لمستسق لها الغيث كلما
لوى الدين مُعْتَلٌ وشحَّ غريم
سحائب لا من صَيِّب ذي صواعق
ولا محرقات ما لهن حميم[2]

٩ ـ الوقوف على الأطلال والرسوم

ومثلما كان يستهل بعض قصائده بوصف الغيث واستسقائه لمنازل الحبيب كان يستهل قصائده الأخرى بالوقوف على تلك المنازل التي أصبحت أطلالاً بعد تحمل أهلها. فيعرج عليها يحييها ويسائلها أين شطت النوى بظعون الراحلين. ويتأمل ويترسم آياتها ومعالمها فيرى أن تقلّب الليالي وسيول الأمطار ورياح الصيف التي تعاورتها قد غيّرتها ولم تبق منها إلّا دمناً ورسوماً دوارس قفراء موحشة تتناوح الرياح في أنحائها ليس فيها إلّا القطا ومطافيل البقر والظباء والنعام وغيرها من حيوان البادية

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢١٧.
(٢) منتهى الطلب ٣/ ٣٢٩.

التي اتخذها مرتعاً ومراحاً، فتهيج وحشتها شجونه وحنينه على نحو ما نراه في هذه الأبيات التي يصوّر فيها وقوفه عليها وتحيته لها، ويتذكر مواضعها التي وجدها موحشة تعاورها الرياح بحيث لم يرَ ما يلوح من رسومها وآثارها على أديم الأرض إلّا كالتوشيح والتسهيم على رداء واسع من العصب:

أربع فحي مَعَارف الأطلال
بالجزع من حُرض فهن بَوالي
فشِراج رِيمة قد تقادم عهدها
بالسفح بين أثيِّل فبعال
لما وقفت بها القلوص تبادرت
حَبَبُ الدموع كأنهن عَزالي
وذكرت عَزَّةَ إذ تُصاقِب دارها
برحيب فاراين فتُخَال
أيام أهلونا جميعاً جيرة
بكنانة ففُراقِد فثُعال[1]

أو على نحو تحيته وبكائه على منازلها التي عفت وأقفرت أطلالها ورسومها كما نرى:

حَيِّ المنازل قد عفت أطلالها
وعفا الرسم بمورهن شمالها

---

(١) شرح ديوان كثيّر عزة ٢ / ٨٤.

قفــراً وقفت بهــا فقلت لـصــاحبي
والعيـن يسـبق طـرفـهـا إسبـالـهـا
أقــوى الغيــاطــل من حــراج مَبَــرَّة
فَخْبُـوب سهوة قـد عفت فـرمـالهـا[1]

وكثيراً ما يقف الشاعر يتأمّل ما فعله تقادم الـزمن وتهطال الأمطار وتلعاب الرياح بآياتها ورسومها وآنائها ودمنها على نحو ما نرى في هذه الأبيات التي يذكر فيها كيف تنكرت آيتها بقدم العهد وبما مرً عليها من ريح ومطر فدرست آناؤها فبدت كالأحـواض الضخمة الواسعة التي قد درست وحال عليها حول كامل:

عــرج بــأطــراف الــديــار وســلـم
وإن هـي لم تـسـمـع ولـم تـتـكـلم
فـقــد قــدمت آيــاتـهــا وتَـنـكَّــرت
لمــا مــرً من ريــح وَوْطـف مُــرْهم
تــأملت من آيــاتـهــا بعــد أهـلهــا
بــأطــراف أعــظام فــأذنــاب أزْنُــم
مــحــانِــيَ آنــاء كــأن دروســهــا
دروس الجـوابي بعد حـول مُجَـرَّم[2]

وكم هاجت أشواقه وبكاءه رؤية تلك المنازل والطلول:

(١) المصدر السابق ٢/ ١٧٦.
(٢) شرح ديوان كثيّر عزة ٢/ ١٢٠.

أللشــوق لمــا هــيجتــك المــنــازل
بحيث التقت من بينتـين الـعَيــاطــل
تــذكــر فــانـهلت لـعيـنـك عـبــرة
يجـود بهـا جـاد من الـدمـع وابـل[1]
لعَــزَّةَ من أيـــام ذي الغصن هـــاجني
بضـــاحي قـــرار الـــروضتيــن رســـوم
فــروضــة آجــام تهيــج لي البـكـــا
وروضــات شَــوْطى عهـدهن قـديم[2]

بل يدعو رفيقيه أن يعقلا قلوصيهما وأن يبكيا حيث كانت تحل. وأن يطوفا بنواحيها وأن يتيمما بترابها. ويتمسحا بأركانها. ويتفيآ بظلالها. حيث كانت تبيت وتستظل. أمّا إذا أراد أن يمحو الله عنهما ذنوبهما فليصلّيا في كعبة الهوى:

خليلـي هـــذا ربــع عــزَّة فــاعـقــلا
قُلُوصَيْكمــا ثــم ابكـيــا حيــث حلّت
ومُسَّــا تــرابــاً كــان قـــد مسّ جلدهــا
وبـيتــا وظــلا حـيث بــاتـت وظلّت
ولا تيــأســـا أن يمحــو الله عنـكمـــا
ذنــوبــاً إذا صلّيتمـــا حيث صلَّت[4]

(١) المصدر السابق ١/ ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٨٥.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٦.

١٠ ـ الظعن.

وممـا يتعلق بالأطـلال والـوقـوف عليهـا مشـاهـد الـظعن والارتحال التي هي صـورة لطبيعة الحياة البدوية وما يخلف ذلك الارتحال من لوعة ودموع كما نرى في هذه الأبيات التي صوّرت حزنه لمّا رأى حدوج عزّة تحدي بالغداة وقد أجَدَّ بها الرحيل:

ألم يحـزنـك يـوم غـدت حـدوج
لـعَـزَّةَ إذ أجَـدَّ بـهـا الـخـروج
بضـاحي النقب حين خـرجن منـه
وخـلف متـون سـاقـتهـا الـخليـج
رأيـت جـمـالـهـا تـعـلو الـثـنـايـا
كـأن ثـرى هـوادجـهـا الـبـروج
وقـد مـرت على تَـرجـان تُحـدى
لـهـا بـالـنصف من مـلل وسيـج
رأيـت حـدوجـهـا فـظللتُ صـبّـاً
يـهيّـجـنُـي من الـحـزن الـحـدوج
إذا أبـصـرت لهـا الـعينـان لجَّـت
بـدمعهـا مـع الـنـظر اللجـوج[1]

فإننا لا نحب أن نشير إلى كل ما ورد في شعره من وصف الظعون وارتحالها فهو يستهل به أغلب قصائده الغزلية. ولكن

---

(١) منتهى الطلب ٣/١٧٧.

نشير إلى أهم ما فيه وهو منظر الجمال وهي تسير بالهوادج فتارة يشبه هوادجها وقد علت الثنايا والروابي بالبروج العالية كما رأينا في القطعة الأولى وتارة يشبهها بالسفن المشحونة وتارة أخرى بالنخيل كما في أبياته التالية التي شبه فيها أيضاً وجه حبيبته وهي في هودجها وقد بدا على البعد كالبدر حين أطلَّ فوق قمة الجبل:

كأن حمولهن لما تولت
بليل والنوى ذات انفتال
شوارع في ثرى الخرماء ليست
بجاذبة آلجذوع ولا رقال
بكل تلاعه كالبدر لما
تنور واستقل على الجبال[1]

١١ ـ الرحلة

ومما يتصل بأطلال الحبيبة وظعونها وصف رحلته التي تعقب ذلك، ووصف راحلته وما تلاقيه في سفرها من جهد وجوع وما يصادفه هو في تلك القفار ولياليها المخوفة على نحو ما نراه في هذه الأبيات:

متى أخشى عدوى الدار بيني وبينها
أصِل بنواجي الناجيات حبالها
على ظهر عاديٍّ تلوح مُتُونه
إذا العيس غالته اسبطر ثقالها

(١) شرح ديوان كُثَيِّر عزّة ١ / ٢٧٠.

وحـافيـة منكـوبـة قـد وقيتهـا

بنعـل ولم أعقـد عـليهـا قبـالهـا

إذا هبـطت وعثـاً من الحظ دافـعت

عـليهـا رذايـا قـد كـللن كـلالهـا

إذا رحـلت منهـا قـلوص تـبـغـمـت

تـبغـمأم الخـشفتـبغـي غـزالهـا[1]

ومن أهم شعره الذي وصف فيه رحلته إلى الحبيبة هذه الأبيات التي لم يكد يترك شيئاً يتعلق بالرحلة والراحلة أو شيئاً رآه في عرض تلك الفيافي الموحشة ولياليها المحفوفة بالمخاطر إلّا ذكره ووصفه:

فقـد أقـطع المـومـات يَسْتَنُّ آلهـا

بهـا جيف الحَسْرى يلوح هشيمهـا

على ظهـر خُـرجـوج يقـطع بـالفتى

نعـاف الفيـافي سَبْتَهـا ورَسيمهـا

وقـد أزجـر العـوجـاء أنقبَ خُفُّهـا

مـنـاسمـهـا لا يسـتبـل رثـيـمـهـا

ولـيـلة إيـجـاف بـأرض مـخـوفـة

تقتني بجـونـات الـظلام جهـومهـا

(١) منتهى الطلب ٣/١٦٤.

فبت أساري ليلها وضريبها
على ظهر حرجوج نبيل حزيمها(١)

وقد مدح كثيراً من الخلفاء والأمراء وهذا يعني أنه خلف شعراً وأفراً في وصف الرحلة، إذ لا نجد له قصيدة مدحٍ إلاّ استهلها بمقدمة طويلة في وصف سفرته إلى ممدوحه. على أن أبرز ما نراه في ذلك هو وصفه لناقته فإن أكثر حديثه يدور حول تلك الناقة التي تبلغه رحاب الممدوح كما أنه يذكر ما يقع عليه بصره في تلك المهامه وما يمرُّ به من مواضع وأعلام في طريقه على نحو ما نرى في مديحه لعبد العزيز بن مروان أيام ولايته على مصر:

إليك تبارى بعدما قلت قد بدت
جبال الشبا أو نكبت هضب تريم
بنا العيس تجتاب الفلاة كأنها
قطا الكدر أمسى قارباً جفر ضمضم
تشكي بأعلى ذي جراول موهناً
مناسم منها تخضب المرو بالدم
تنوط العِتاق الحِمْرَيَّة صُحبتي
بأعيس نَهَّاض غلى الأين مَرْجم
كأن المطايا تتقي من زبانة
مناكب ركن من نضاد ململم

(١) منتهى الطلب ٢/١٧٢.

تعالى وقد نكبن أعلام عابد
بأركانها اليسرى هِضاب المُقَطَّم
رأيت ابن ليلى يعتري صلب ماله
مسائل شتى من غني ومعدم[1]

وغير ذلك الكثير من مقدمات القصائد التي يمدح فيها عبد العزيز بن مروان وأبي بكر بن عبد العزيز وبشر بن مروان وغيرهم من الأمراء..

١٢ ـ حيوان البادية وجوها

أمّا أهم ما وصفه من حيوان البادية فهي الظباء التي يشبه عَزَّةَ بها عندما يتناولها في غزله أو عندما يراها بأطلالها. ووصف كذلك النعام والقطا وبقر الوحش والأسود التي يراها في القفار. غير أنه كان يمر بها مَرّاً سريعاً فلم يقف عندها طويلاً كما فعل عند ناقته ومن ذلك وصفه للذئب:

وصادفت عَيَّالا كأن عواءه
بُكاء مُجْرذ يبغي المبيت خَلِيْع
عَوى ناشزَالحيزوم مُضطِمر الحشا
يعالج ليلاً قارساً مع جوع
فصوَّتَ إذا نادى بباق على الطوى
مجنب طراف العصا وهبوع

(١) المصدر السابق ٢ / ٧١.

فلم يحترس إلّا معرس راكب

تأيا قليلاً واسترى بقطيع[1]

أمّا جو الصحراء فقد مرت بعض الأبيات في وصف توهّج رمالها وقد قال يصف شدة هجيرها الذي لاذوا منه بصدور المطي يقيّلون بظلها:

ونضحى وأثباج المطي مقيلنا

بجذبٍ بنافي الصَّيهد المتوقد

وقال أيضاً:

وهاجرة يا عزَّ يلطّف حرها

لركبانها من حيث لَيَّ العمائم

نصبت لها وجهي وعزَّةُ تتقي

بجلبابها والستر لفح السمائم

أمّا في الليل فإن النسمات تداعب وجوههم بريّا عَزَّةَ وطيب الرمال الندية:

أتتنا برياها وللعيس تحتنا

وجيف بصحراء الرسيس مهذب

جنوب تسامى أوجه الركب مسها

لذيذ ومسراها من الأرض طيب

---

(١) شرح ديوان كُثيِّر عزة ١/٢٨٢.

وأمّا البرد والثلج فقد وصفهما عند رثائه لعبد العزيز بن مروان وتنويهه بكرمه فقال:

حلفت يميناً بالذي وهبت له
جنوب الهدايا والجباه السواجد

لنعم ذوو الأضياف يغشون بابه
إذا هبَّ أرياح الشتاء الصوارد

إذا استغشت الأجواف أجلاد شتوة
وأصبح يحموم به الثلج جامد[1]

١٣ ـ مناسك الحجّ

وقد وصف مناسك الحج وخاصة اجتماع الحجاج وانصرافهم من مكة. ومن ذلك قوله:

تفرَّقَ أُلّاف الحجيج على مِنىً
وشتتهم شحط النوى مشي أربع

فريقان منهم سالك بطن نخلة
وآخر منهم جازع ظهر تضرع

فلم أرَ داراً مثلها دار غبطة
ومَلقىً إذا التف الحجيج بمجمع

أقل مقيماً راضياً بمكانه
وأكثر جاراً ظاعناً لم يودع

---

(١) شرح ديوان كُثيِّر عزة ٢ / ١١٤ .

فأصبح لا تلقى خباء عهدته
بمضربة أوتاده لم تنزع[1]

ومن ذلك أيضاً هذه الأبيات المشهورة التي تناقلها وتدارسها النقّاد وأهل البلاغة إعجاباً بها وتنويهاً بلطف الوصف الذي جاء فيها لمناسك الحج وهي قوله:

ولما قضينا من مِنًى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشُدّت على حُدْب المهارَى رحالنا
ولا يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح
نقعنا قلوباً بالأحاديث واشتفت
بذاك صدور منضجات قرائح[2]

١٤ ـ الحكم

اشتهر كُثَيِّر بالأمثال اشتهاره بالنسيب. فكما عدّه أبو تمام ركن النسيب جعله القلقشندي مضرب المثل في الأمثال. فقد قال في ضرورة معرفة الكاتب بمن تقدم في نوع من الشعر: فالطفيل الغنوي بوصف الخيل والفرزدق بالأخبار. وكُثَيِّر بالأمثال. وقال

---

(١) شرح ديوان كُثيِّر عزة ١/١٢٤.
(٢) صبح الأعشى ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

أيضاً في تقريض شاعر: وكُثَيِّر عَزَّةَ في أمثاله لا يعد من أمثاله[1].

ولكن لا نجد له اليوم من أمثاله وحكمه إلّا أبيات قليلة مبثوثة في قصائده. كقوله في المعاشرة:

فمن لا يغمض عينه عن صديقه
وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة
يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب[2]

وفي الطبع والتطبع:

ومن يبتدع ما ليس من خِيم نفسه
يدعه ويغلبه على النفس خيمها[3]

وفي الصبر على النوائب:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي
عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لا بدّ يوماً
ولو بقيت تصير إلى النفاد[4]

وقال في حتمية الموت:

---

(١) المصدر السابق ١/٢٩٣.
(٢) شرح ديوان كُثيّر عزة ١/٧٦.
(٣) منتهى الطلب ٣/١٧٢.
(٤) المصدر السابق ٣/١٧٢.

وأعـلم أني لـن أسـربـل جُـنَّـة
من المـوت معقـوداً على تميمهـا[١]

فمـا لامـرىء حَيٍّ وإن طـال عمـره
ولا لـلجبـال الـراسيـات خـلود[٢]

وفي توطين النفس للمصيبة:

قـلت لهـا يـا عـزَّ كـل مـصيبـة
إذا وطنت يـومـاً لهـا النفس ذلّت[٣]

وفي عدم الجزع عند تقلب الأحوال والصبر والتفاؤل عند الشدائد:

فـمـا رَوْنَق الـدنـيـا بـبـاق لأهـله
ولا شـدة الـبلوى بـضـربـة لازم

فـلا تجـزعن من شـدة إن بعـدهـا
خـوارج تلوى بـالخـطوب العـظائم[٤]

---

(١) شرح ديوان كُثيّر عزة ٢ / ١٦٤ .
(٢) منتهى الطلب ١٧٢/٣ .
(٣) شرح ديوان كُثيّر عزة ١ / ٤١ .
(٤) شرح ديوان كُثيّر عزة: ١ /٢٧٧ .

الفصل الرابع:

خصائصه الفنية

ـ الإحكام والتفصيل:

إنَّ أبرز خصائص كُثَيِّر الفنّية تظهر في إحكام عُرى قوافيه وأطراف معانيه. كما يبدو ذلك في إحدى مدائحه لبشر بن مروان.

واحكم كل قافية جديد
تحبرها غرايب ما تقول[1]

وتظهر في قوله عند رثائه لخندق الأسدي:

بمرثية فيها ثناء محبر
لأزهرٍ من أولاد مرة معرق[2]

وتتجلّى كذلك في مدحه لعبد العزيز بن مروان:

إذا وفدت ركبان كعب وعامر
عليك وأردوا كل هوجاء عيهل
لقوك بقول من ثنائي صادق
تخيرته حُرًّ القصيد المنخل

---

(١) منتهى الطلب ٣/١٦٨.

(٢) شرح ديوان كُثيّر ٢/١٤٩.

ثنـاء يـوافي بـالمـواسم أهـلهـا
وينشـده الـركبـان في كـل محفـل[1]

على أن أهم ما نجده في شعره من خصائص هو التفصيل في الوصف والتنسيق في العرض بحيث لا يترك الموضوع حتى يستقصي أبعاده ويستجمع أطرافه ويستوفي كل معانيه، ثم يعرضه عرضاً منسّقاً دقيقاً جليّاً. فإذا ما وقف يمدح عبد الملك بن مروان وهو في إبّان استقلاله بالخلافة بعد انتزاعها من منافسيه الكثيرين أشار إلى فوزه بها غلاباً بحدّ السيف ليثبت قوته الفائقة عليهم جميعاً. وغمز خصومه من طرف آخر ليثير في نفس ممدوحه نشوة النصر وزهوة الفخر.

أحـاطت يـداه بـالخـلافـة بعـدمـا
أراد رجـال آخـرون اغـتيـالـهـا

ثمّ وجّه كل معانيه فركّزها على الخلافة وعلى عبد الملك؛ وراح ينسب له كل الصفات التي تؤهله وتثبت جدارته للاضطلاع بأمرها فهاجم المناوئين الذين نازعوه فيها ثم أسلموها له عجزاً وقهراً بعد أن ظهر عليهم بمقدرته الحربية. أما الناس فبايعوه عن طاعة ورضى بعدما رأوا الأمن الذي نشره عليهم بتولي خلافتهم.

بلوه فـأعـطوه الخـلافـة بـعـدمـا
أدَبَّ الـبـلاد سـهـلهـا وجـبـالـهـا

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٣٣.

ثم أخذ يعرض صورة واسعة لحروبه مع هؤلاء الأعداء الذين انتصر عليهم بشكل ساحق، فبدأ بوصف خيل كتائبه ومسيرها إلى أعدائها فقال:

مقانب خيل لا تزال مطلة
عليهم فملّوا كل يوم قتالها
دوافع بالروحاء طوراً وتارة
مخارم رَضْوَى مرجها فرمالها
وخيل بعانات فَسِنٍّ سميرة
له لا يرد الذايدون نهالها

ثم أشار إلى كتائب الأعداء فقال:

إذا عرضت شهباء خطارة القنا
تريك السيوف هزها واستلالها

وانتقل بعدها إلى وصف كتائبه وسلاحها وفرسانها وبسالتهم في القتال فقال:

رميت بأبناء الفُقيمة بالوغى
يؤمّون مشي المشبلات ظلالها
كأنهم آساد حلية أصبحت
خوادر تحمى الخِلّ ممن دنا لها
إذا أخذوا أدراعهم فتسربلوا
مقلص مسروداتها ومذالها

وبعـد أن وصف كتائب الـطرفين وهمـا على تلك العـدة والسلاح والأهبـة والتـوثّب للحرب أبـرز عبد الملك على رأس كتائبه وأخذ يصف صياله الشديد وهجماته على كتائب الخصوم:

وحـرب إذا الأعـداء أنشت حيـاضهـا
وقلب أمـراس السـواني مهـالـهـا
وردت عـلى فـراطهـم فـدهمـتـهـم
بـأخـطار مـوت يلتهمن سحـالهـا
وقـاريـة أحـواض مـجـدك دونهـا
ذيـاداً يبيـل الحـاضنـان سخـالهـا
وشهبـاء تـردي بـالسلوقي فـوقهـا
سنـا بـارقـات تكـره العين خـالهـا
قصـدت لهـا حتى إذا مـا لقيـتهـا
ضـربت ببصري الصفيـح قـذالهـا

ثم وقف أمام عبد الملك وهو على قمة هذا النصر يرفعه إلى ذروة العلياء مشيداً بهمته التي احتوت المجد بكلتا يـديه بينمـا تقاصرت أكفُّ الطامحين:

سـمـوت وأدركـت الـعـلاء وإنـمـا
يلقّى عليـات العـلى من سـمـالهـا
وصلت فنـالت كفـك المجـد كـلـه
ولم تبلغ الأيـدي السـوامي مصـالهـا

وقبل أن يختم قصيدته يلتفت نحو بني أميـة وبني مروان

مخاطباً من قد تُحدِّثه نفسه منهم بالوثوب على عبد الملك وهو في خضمٍّ هذه الظروف التي لما يستتب له فيها أمر الخلافة، ويذكرهم بأن الفضل في بقاء الأمر في يد بني عبد شمس إنما يعود لموقف أبيه مروان بن الحكم الذي تدارك أمرهم بعد أن كاد يخرج من أيديهم وحفظ عليهم قبة الملك بعد أن زعزعتها الزعازع وتهاوت وكادت تطوح بها:

فلا تكفروا مروان آلاء فعله
بني عبد شمس واشكروه فعالها
أبوكم تلافى قبة الملك بعدما
هوى سمكها وغيّر الناس حالها

وأنْذَرَهم بمن يقف وراءه من عصبته وذوي حميته:

إذا الناس ساموه حياة زهيدة
هي القتل أو القتل الذي لا شوى لها
أبى الله للشم الألاء كأنهم
سيوف أجاد القين يوماً صقالها

أفرأيت هذا التفصيل والتوسع خاصة في وصف صفات عبد الملك التي تتصل باستحقاقه للخلافة. وهذا الاستقصاء لكل ما يدور حول الخلافة من صراع فكري وحربي ودقة التنسيق والتسلسل في عرض مراحل الموضوع. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هذا التفصيل والاستقصاء أصبح مذهباً مستقلاً في الغزل

العذري خاصة، حيث أخذ العشاق العذريون في تحليل مشاعرهم وعواطفهم ووصف الصراع النفسي الذي يعانونه بين الحنين والحرمان. فطال عندهم موضوع الغزل حتى استقل بالقصائد بعد أن كان لا يتجاوز عدة أبيات يستهل بها الشاعر الجاهلي قصيدته ثم ينتقل بعدها إلى الأغراض الأخرى. وعُرِفَ مذهبهم هذا بالمذهب التحليلي وفي مقدمتهم جميل بثينة وكُثَيِّر عزّة؛ فلقد أخذ كُثيّر عن أستاذه جميل مذهبه التحليلي هذا في وصف أحاسيسه وعواطفه وتصوير الصراع النفسي الذي كان يملأ عليه أرجاء نفسه كما يتجلّى ذلك في كل قصائده الغزلية. وعندما كان يُسأل عن رأيه في شعر جميل يقول: هو إمامنا وهل علّم الله ما ترون إلّا منه؟

- بلاغته وصوره البيانية

أمّا بلاغته وصوره البيانية فكلّها مستمدة من حياة البادية ومستوحاة من بيئتها البدوية. فانظر كيف عبّر عن أحلامه في انفراده هو وعَزّة بعيداً عن الناس. فشبّه نفسه وحبيبته بجمل أجرب وناقة جرباء ضائعين لرجل غني فلا هو يسأل عنهما ولا يوجد من يطلبهما، بل ينفر منهما الرعاة، فإذا رأوهما يردان منهلاً خافوا منهما على إبلهم وهبّوا إليهما يصيحون بهما ويرجمونهما ويطردونهما:

ألَا ليتنا يا عزَّ كنا لذي غنىً

بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب

نكـــون بعيـــري ذي غنى فيضيعنـــا
فــلا هــو يــرعـانــا ولا نحن نُـطلب
كــلانــا بــه عَــرٌّ فمن يــرنــا يقــل
على حسنهـا جـربـاء تعـدي وأجـرب
إذا مـــا وردنـــا منهـلا صـــاح أهـلـه
علينـــا فمـا ننفــك نــرمى ونضـــرب
يــطردنـــا الــرعيـــان من كــل تلعـــة
ويمنـــع منّـا أن نـــرى فيـــه نشـــرب
وددت وبـيـــت الله أنــك بــكـرة
هجـــان وإنـي مُصْعَب ثم نهـــرب[1]

وعندما أنشد عَزّة أبياته هذه قالت: لقد أردت بنا الشقـاء الطويل. أمَا وجدت أُمنية أوطأ من هذه[2]؟!

وهو يشبّه الخشبات الطويلة البارزة من رحل ناقته بقرون الأيل فيقول:

كــأن قتــود الــرحــل منهـــا تبينهـــا
قــرون نحتت في جمـاجم أبـــدن[3]

ويشبّه ما تحت إبطيها بمغارتين متثلمتين للثعلب ومبالغة في بيان شدة هزالها إثر الرحلة:

---

(١) شرح الديوان ١/٩٩.
(٢) المصدر السابق ١/١٠٠.
(٣) شرح الديوان ٢/٥٧.

كــأن خــليفَـي زورهـــا ورحـــاهـمـــا
بُنَى مَـكَــويـن ثُلِّمـا بعــد صَيْـدن[1]

بيد أن الطابع البدوي ليس هو كل ما في تشبيهاته؛ فأهم من ذلك استقصاؤه لطرفي التشبيه. أي عقـد التشبيه بين مشبه ومشبّه به يكونان متشابهين في معظم جوانبهما. كما شبّه نـاقته وهي تمرُّ مسرعة بالظليم وهو يمرُّ مسرعاً.

فمـرت بليـل وهي شـدفـاء عــاصف
بمنخـــرق الــدوداة مـــرَّ الخَفَيْــدَدِ[2]

فهو يشبّه سرعة الناقة بسرعة ذكر النعام ولكننا نلمح في هذا البيت تشابهاً آخر وهو التشابه بين النعام والناقة ولذلك لم يشبه سرعتها بسرعة الذئب مثلاً وإنما شبه سرعتها بسرعة النعام ليجمع إلى تشبيه سرعتها بسرعة النعام تشبيه هيئتها بهيئة النعام.

كما شبّه نار عزّة وقد رآها على البعد بالكوكب فقال:

لــعــزّة نــار مـــا تـبـــوخ كـــأنـــهـــا
إذا رمـقـنـــا عـلـى الـبـعـــد كـــوكـــب

فـالصورة التي نحسُّهـا هنا ليست تشبيـه النار بـالكـوكب فحسب، وإنما النار وما حولها من ظلام بالكوكب وما حوله من ظـلام أو كما شبـه قطاراً من الإبـل، وقد سـارت في الصحراء

---

(١) المصدر السابق ٢/٥٦.
(٢) المصدر السابق ١/١١٠.

بالظعن وعليها الهوادج والحمول بالسفن وقد أطلقت أشرعتها للريح:

فلما استقلت عن مناخ جمالها
وأسفرن بالأحمال قلت سَفِين[1]

ونجد نوعاً آخر من التشبيه لا يحدد فيه المشبه به بل يدعه مطلقاً ليثير شتّى الخيالات ويحتمل كل المعاني وذلك على نحو ما يشبه حالة شتاته وضياعه بعد ذهاب عزّة بشتات سبأ وضياعها بعد سيل العرم:

أيادي سبأ يا عزَّ ما كنت بعدكم
فلم يحْلُ للعينين بعدك منظر

وبذلك جعل القارىء يتخيّل شتّى الصور من الشتات والضياع والوحشة التي حلّت به.

أمّا استعاراته فكذلك مستمدة من بيئته على أنها لا تخلو من طرافة الصياغه والأداء. كما نراه يصوّر بقايا الشباب في صورة الأطلال حيث يقول:

وإن بياض الرأس يعقب بالنهى
ولكن أطلال الشباب تزين

فعندما نسمع كلمة الأطلال التي وردت في هذا البيت نشعر أن استعارته وصياغته لها على هذا النحو قد أكسبها معنىً جديداً

---

(١) منتهى الطلب ٣/ ١٧٥.

طريفاً. وكذلك نشاهد هذه الاستعارة التي ساقها في هذين البيتين كيف ألبست المعنى عمقاً وروعة وقد تضمّنت طباقاً:

وكيف لكم قلبي سليم وأنتم
على حسك الشحناء حِنْوُ الأضالع
أحاذر أن تلقوا ردى ومطيكم
خواضع تبغيني حمام المصارع

وما أتمّ هذه الاستعارة التي عقدها بين مشيبه وحبّه:

تجلى غَطاء الرأس عني ولم يكد
غطاء فؤادي ينجلي لسريع

ومن استعاراته التي يتجلّى فيها بعد خياله ومقدرته الفنيّة والبيانية هذه الأبيات التي أراد أن يصف فيها شدة عفّة عمر الخيرات وزهده من مفاتن الدنيا ومتعها فشبّه الدنيا بغادة عَرُوب لعوب قد تبرجت وانبرت تتعرض له تغريه في مفاتنها، فتارة تبدي له كفها ومعصمها، وتارة تومىء بعين مريضة وأخرى تبسم عن ثغر منضد بالجمان، ولكنه أعرض عنها مشمئزّاً كأنها قد سقته سمّاً ممزوجاً بالعلقم:

ولو لبست لبس الهلوك ثيابها
تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة
وتبسم عن مثل الجمان المنظم

فـأعـرضت عنهـا مشمئزّاً كـأنمـا

سقتـك مـدوفـاً من سمـام وعـلقم

ويستخدم الكناية في التعبير عن الكرم السابغ الذي يغدقه ممدوحه على شخصه فيقول:

غمـر الـرداء إذا تبسم ضـاحـكـاً

غـلقت لـضحـكـتـه رقـاب الـمـال

فممدوحه يغمر معتفيه بكرمه فكأنما يغمره بثوب سابغ. وما أبعد المغزى الذي ضمنه قوله: «إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال» إذ جعل ابتسامته إشارة بشارة لاستحقاقهم لما يأملون عنده. ولا شك أن هذه مبالغة حميدة في مدح عبد العزيز بن مروان بالكرم إذ جعله يرى أنه في جوده هذا إنما يهب لقصّاده ما لهم من مال لديه.

وقد استعمل الكناية أيضاً عندما كنّى عن مناعة غاضرة وحصانتها وعفتها بأن دون وصولها ووصالها خرط القتاد فقال:

ومـن دون الـذي قـد أمـلت ودا

ولـو طـالـبـتـهـا خـرط الـقـتـاد

ويستخدم أحياناً التورية فيضاعف المبالغة كما نرى في كلمة الصوم:

لـقـد لقـيتـنـا أم عـمـرو بـصـادق

من الصـوم أو ضاقت عليـه الخـلائق

فهو يسمّي بخلها عليه بنوالها «صوماً» وهو يقصد صوم العفة وصوم التحريم اللذين يمنعانها من نواله.

ونلاحظ كذلك عنايته البارزة بتقسيم البيت وبالسجع وبالجناس والطباق؛ ومن ذلك هذا التزاوج بين السجع والتقسيم الذي ورد في وصفه لعزّة:

سراج الدجى صفر الحشا منتهى المنى
كشمس الضحى نوامة حين تصبح

أو على نحو وصفه لها أيضاً:

هضيم الحشا رُود الخُطا بَخْتَرِيَّةٌ
لطيف عليها الأتْحَمِيُّ المُنشَّب

أو الجناس كما ظهر في وصف حالته وهو يعاتب عزَّة.

أمنى صرمت الحبل لما رأيتني
طريد حروب طرحته الطوارح

وأحياناً يزاوج الجناس والتقسيم كما في وصفه للسحاب وبرقه وهيدبه فيقول:

تألق واحمومى وخيم بالربا
احم الذرى ذو هيدب متراكب

واستعماله للطباق كاستعماله للسجع وللجناس والتقسيم كما نجد له صوراً منه في قصائده على نحو قوله يصف صراعه النفسي وحيرته مع عزّة.

وأعجبني يا عزّ منك خلائق
كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يذكر الجاهل الصِّبا
ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مطلته
أيشتد إن لاقاك أم يتضرع

ومن ذلك أيضاً قوله:

فوالله ما قاربت إلّا تباعدت
بصرم ولا اكثرت إلّا أقلَّتِ
وكنا سلكنا في صعود من الهوى
فلما توافينا ثبتُّ وزلّتِ

أو كما نجد الطباق الذي بين التجلّد الذي يبديه مع الهيام الشديد الذي يسره:

وإني على ذلك التجلّد أنني
مسر هيام يستبل ويردع

أو مثلما يقابل عزوف الدنيء عن الهوى بصبوة الكريم:

فقد يوجد النِّكْس الدنيء عن الهوى
عزوفاً ويصبو المرء وهو كريم

ولكن أشد ما نرى من اهتمامه بالصنعة اللفظية مما يدل على مذهبه في تجويد الشعر وتحبيره هو اصطناعه للزوم ما لا يلزم

في قوافيه حيث نجد له ثلاث لزوميات: أمّا اللزومية الأولى فتبلغ أربعة وأربعين بيتاً في الغزل وحده؛ والتزم فيها اللاّم المشدّدة قبل حرف الروّي وهي التي يستهلها بقوله:

خليليّ هــذا ربــع عــزّة فــاعــقــلا
قلوصيكمــا ثـم ابكـيــا حيـث حلَّت

ولم يخالف إلاّ في بيت واحد منها وهو قوله:

فمــا أنصفت أمــا النســاء فبغـضت
إلـي وأمــا بــالـنــوال فـضَـنَّـت

أمّا اللزومية الثانية فقد التزم فيها ما التزم في اللزومية الأولى ولم نجد فيها سوى خمسة أبيات، ثلاثة في الغزل وبيتين في المديح أولهما قوله:

ومــا نـطفــة كـانت سـلالــة بــارق
نمت عن طـريق النـاس ثم استـظلّت

أمّا اللزومية الثالثة فقد التزم فيها الميم المشدّدة قبل حرف الروّي الذي هو التاء أيضاً وهي في الغزل والمديح وقد استهلّها بقوله:

أأطــلال دار بــالــنــيــاع فـحمَّـت
سـألت فلمــا استعجمت ثم صـمَّت

ولكن هذا لا يعني أن كُثيِّراً هو أول من استعمل لزوم ما لا يلزم في القافية بل سبقته إلى ذلك مجموعة من فحول الشعر

كزهير والحطيئة وجميل بثينة وسواهم ومن يراجع دواوينهم يجد نماذج لتلك اللزوميات فيها[1].

وهكذا نرى أن كُثيِّراً ما ينفك عن هذا الاستقصاء والاستيفاء للمعاني الدقيقة التي يتحسسها في جوانب الموضوع ثم يجليها بهذه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وتورية وإلى جانب عنايته بتفصيل المعاني واستقصاء أجزاء الصور وتنسيق عرضها.

- أوزانه وقوافيه

نظم كُثيِّر معظم قصائده على البحور الطويلة، لأنها كانت أشد ملاءمة لما ينشده من فخامة. وهو لم يرد له سوى أربعة أبيات من الرجز. وأحصيت له حوالي خمسين قصيدة وثمانين قطعة على البحر الطويل، وسبع قصائد وست عشرة قطعة على البحر الوافر، وسبع قصائد وخمس عشرة قطعة على البحر الكامل، وقصيدة واحدة وخمس قطع على البحر الخفيف، وقصيدتان على البحر المتقارب، وقصيدة وقطعة على البحر البسيط، وقطعة واحدة على البحر المنسرح، وقطعة واحدة على البحر السريع.

وقد نظم قوافيه على تسعة عشر حرفاً من حروف المعجم هي: الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والدال والراء والزاي والضاد والعين والغين والقاف والكاف واللام والميم

(١) شرح ديوان زهير ص ٣٣٤.

والنـون والياء والألف المقصـورة ويتبينّها بـوضـوح من يتصفّـح ديوانه.

هـذه هي جميع الحـروف التي نظم عليهـا كُثيّر قـوافيه. ولا شك أن كثرة هـذه المقطوعـات والأبيات المفـردة تدل على الكمية الكبيرة المفقودة من شعره.

- لغته وأسلوبه

تتباين ألفاظ كُثيّـر بين الوضـوح والغرابـة، وتعبيراتـه بين السهولة والتعقيد حسب قرب الموضوع أو بعده عن حياة البادية. فلو تصفّحنا قصائـده في الغزل أو المـديح أو الفخـر أو الهجاء لوجدنا أن ألفاظها واضحة تشفّ عن معانيها. فلا نكاد نرى فيها شائبة تعقيد أو غموض. أمّا إذا طالعنا قصائده التي تتصل بمظاهر البادية والبداوة كالحديث عن مناظرها ومياهها ونبـاتها وبقـاعها المختلفة وما يتعلّق بحيوانها أو بالإبل وشياتها وحياتها أو بالسحاب والمطر وأوصافهما، لوجدنا أن الغرابة تكاد تخيّم على كل لفظة من ألفاظها والغموض يشوب كل معنى من معانيها بحيث لا يمكن معرفتها إلاّ بمراجعة معاجم اللغة، وحتى هذه المعاجم لا تعطي أحياناً المعنى الدقيق الخاص الذي يحسّه ويريده الشاعر.

فلو قرأنا إحدى هذه القصـائد لألفينـا أن كلماتهـا مألـوفة وألفاظها مأنوسة ولا يصادفنا خلالها ولا أية لفظة غريبة إلاّ ما يتصل بالبادية وبيئتها على نحو ما نرى في لزوميته اللاّمية التالية التي تبلغ حوالي الخمسين بيتاً والتي يقول فيها:

خليليَّ هـذا ربـع عـزّة فـاعـقـلا
قَلُوْصَيْكُمـا ثـم ابكـيـا حيـث حَلَّت
ومُسّـا تـرابـاً كـان قـد مَسَّ جلدهـا
وبـيتـاً وظِـلاً حـيث بـاتـت وظلّت
ولا تيـأسـا أن يمحـو الله عنكمـا
ذنـوبـاً إذا مـا صلّيتمـا حيث صَلَّت
ومـا كنت أدري قبـل عـزّة مـا البكـا
ولا مـوجعـات القلب حتـى تـولّت
وكـانت لقـطع الحبـل بيني وبينهـا
كـنـاذرة نـذراً فـأوفـت وحـلّت
فقلت لـهـا يـا عـزّ كـل مصيبـة
إذا وطنت يـومـاً لـهـا النـفس ذلّت
كـأني أنـادي صخـرة حين أعـرضت
من الصُّمِّ لـو تمشي بهـا العُصْم زلّت
صـفـوحـاً فمـا تـلقـاك إلاّ بخـيلة
فمن مَـلَّ منهـا ذلـك الـوصـل ملّت
أبـاحت حمى لم يرعـه النـاس قبلهـا
وحلّت تِـلاعـاً لم تكن قبـل حُلَّت[1]

فهذه الأبيات كلهـا واضحة مفهـومة حتى إذا وصلنـا إلى قوله: «أباحت حمى» أحسسنا بشيء من غرابة المعنى في الشطر

(١) شرح الديوان ١/٣٦ ٥٩.

الأول وبغرابة لفظة «تلاع» في الشطر الثاني واحتجنا إلى المعاجم لمعرفتها ومن ثم لمعرفة الكناية التي يتضمّنها الشطـران؛ وهي أن عزّة قد استولت على قلبه بعد أن كان قلبها كالحمى المنيع الذي لا يجرؤ أحد على اقتحامه، وكالتلاع وهي الروابي التي لا يطمع أحد في أن يحلّها. لأن السيول العاتية لا تفتأ أن تجرف ما عليها.

وعلى هـذه الصورة تمضي جميـع أبيـات هـذه القصيـدة لا نجد فيها كلمة غريبـة أو تعبيراً مبهمـاً إلّا حينما تكـون تلك الكلمة أو ذلك التعبير مما يتصل بالبادية ومظاهر الحياة فيها.

وطابع الوضوح والإشراق هذا عام في كل شعـره الغزلي الذي عبّر عن عواطف حبه من وجـد وحنين وحرمـان وحسرات وشكوى ومناجاة. ولغة مـديحه كلغـة غزلـه، تتسم بصفائها من شـوائب الحـوشيـة المهجـورة على نحـو مـا نـرى في مـدحـه لعبد الملك بن مروان حيث يقول:

أحــاطت يـداه بــالخـلافــة بعـدمــا
أراد رجــال آخــرون اغـتـيــالـهــا
فـمــا تــركــوهــا عنــوة عـن مــودة
ولكن بحــد المشــرفي استقــالـهــا
هــو المـرء يجــزى بـالمــودة أهلهـا
ويحــذو بنعــل المستثيـب قبــالـهــا
بلوه فــأعــطوه الخــلافــة بـعــدمـا
أدَبَّ الـبــلاد سـهـلهــا وجـبــالـهــا

وكــنت إذا نــابـتــك يــومــاً ملمــة
نـبلت لـهــا أبــا الــوليــد نـبــالهــا
وصلت فنــالت كفــك المجــد كـله
ولم تبلغ الأيـدي السـوامي مصــالهـا

وهكذا نرى لغة مديحه كلغة غزله جلية ناصعة منتقاة مصفاة من شــوائب الألفاظ الغـريبة بحيث نـرى كلمات البيت الـواحد كحبات اللؤلؤ في نقائها واتساقها ليس بينها لفظ غريب معتم أو ناشز في حوشيته.

وكذلك لغته السياسية سواء التي عبّر بها عما كان يؤمن به عندما كان يتشيّع لآل البيت رضي الله عنهم أو بعد انحرافه عنهم وانصرافه إلى بني مروان كما نرى في قوله:

ألا أيــهــا الـجَــــدلُ الـمــعنّــي
لــنــا مــا نحـن ويـحـك والـعـنــاء
أتـبـصــر مــا تـقــول وأنـت كَـهْــل
تُـراك عــلـيــك مــن وَرَع رداء
ألا إنّ الأئـــمــة مــن قــريشٍ
ولاة الــحــق أربــعــة ســواء
عــليٌّ والــثــلاثــة مــن بــنـيــه
هــم أَسْــبَــاطُــه والأوصــيــاء[1]

---

(١) الأسباط: أولاد الابن وقيل أولاد الابنة. انظر لسان العرب مادة: سبط.

فأنّى في وصيته إليهم
يكون الشك فينا والمِراء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ
وسِبْطٌ غيَّبَتْهُ كَرْبَلاَء
وسبط لا يذوق الموت حتى
يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً
بِرَضْوَى عنده عسل وماء

ولا تختلف لغته في الرثاء عن ذلك إلّا إذا أخذ يستسقي هَيْدَب السحاب، فإنه يغرب بعض الاغراب في وصفه كما في أبياته التي رثى فيها الحسين عليه السلام. أو في رثائه لعبد العزيز بن مروان الذي يقول فيه:

فلست بناسيه وإن حيل دونه
وحال بأحواز الصحاصح مورها
وإن نظرت من دونه الأرض وانبرى
لنكب رياح هب فيها خَفيرها
حياتي ما دامت بشرقيّ يَلْبَنٌ
بَرَامٌ وأضحت لِم تُسَيِّر صخورها
تشيم على أرض ابن ليلى مخيلة
عريضاً نساها مكرهفّاً صبيرها[1]

(١)شرح ديوان كُثيّر ٢/١٠٧.

وكذلك يغرب في لغته في فخره ولا سيما عندما يتطرق إلى نعت الخيل ووصف حركاتها في الحرب وذكر مواضع الـوقائـع كقوله:

ونـحن مـنعـنـا من تـهـامـة كـلهـا
جنـوب نقا الخـوار فـالـدَّمِث السهـلا
بكـل كُميْت مجفـر الـدف سـابح
وكـل مـزاق وردة تنعـلك الـنِّـكـلا
فسـائـل بقـومي كـل أجـرد سـابـح
وَسَـلْ غنمـا رُبًّى بضمـرة أو سخـلا
سـواء كـأسنـان الحمـار فـلا تـرى
لـذي كَبْـرَةٍ منهم على نـاشيء فضـلا

وكذلك إذا استوحى معانيه من الحياة القبلية نجد الإغراب والغموض في ألفاظه ومعانيـه كما في فخـره بشجاعتـه وحلمه وحزمه:

ومـلتـمس مـنـي الـشـكـيمـة غـرة
ليـان حـواشي شيمـتي وجـمـالهـا
رميت بـأطـراف الـزِّجَـاج فلم يفق
عن الجهـل حتى حكمتـه نصـالهـا[1]

ونراه كذلك إذا أخذ في نعت الإبل وحِداء الظعائن وأبعد

---

(١) شرح ديوان كُثيِّر ١/٢٤٣.

في البيداء ووصف الغيث، بدوي قح ممعن في البداوة موغل في الإغراب والحوشية. ومن ذلك وصفه لراحلته وللبيداء التي قطعها حيث قال:

فقد أقطع الموماة يستن آلها
بها جِيف الحَسْرى يلوح هشيمها
على ظهر جِرجُوج يُقطّع بالفتى
نِعافَ الفيافي سَبْتَها ورسيمُها
وقد أزجر العوجاء أنقب خُفُّها
مناسمها لا يستبلُّ رثيمها
وقد غنيت سمراً كأن حروفها
مواثم رضاخ يطير جريمها
وليلة إيجاف بأرض مخومة
تقتني بجونات الظلام جهومها
فبت أساري ليلها وضريبها
على ظهر جِرجُوج نبيل حزيمها
تواهق إطلاحاً كأن عيوبها
وقيع فعادت عن نطاف هزومها

فأين هذه اللغة البدوية الوعرة القعرة التي لا نكاد نعرف منها كلمة واحدة من تلك اللغة المألوفة المأنوسة التي استعملها في الغزل والمديح والفخر والهجاء والتي لا نكاد ننكر منها لفظة واحدة؟!

وإذا كانت الألفاظ الغريبة التي تتصل بنعت الإبل ووصف البادية سِمةً من سمات البداوة التي لا غنى للشاعر عن استعمالها عند وصف الإبل والبادية؛ إلّا أنّ الألفاظ الغريبة التي نجدها في الأبيات السالفة لم ترد على خاطر الشاعر عفواً ولم تجرِ في أبياته على ترسّلها بل نرى أن كُثيّراً كان يأتي بها إتياناً إمعاناً بالإغراب. ويتمنطق بنغمتها الممعنة في بداوتها عند حديثه عن الإبل والظعن والظباء اللُّعْس والبادية والأودية العبقة بعرارها، ليزيد منشده شغفاً بإنشاده وحديثه. وعلى هذا النحو من الإمعان في استعمال تلك الصيغ المطبوعة بطابع البداوة ولهجتها نجد أبياته التالية:

شجا أظعانُ سعدى السوالك
وأجمالها يوم البليد الرواتك

تأمل كذا هل ترعوي وكأنها
موائج شِيْزى أمرخَتْها الدوامك

وهل تريني بعد أن ننزع البُرَى
وقد أبن أنضاء وهن زواحك

وردن بُصَاقاً بعد عشرين ليلة
وهنّ كليلات العيون ركائك

وقد ترجع الغرابة في هذا الموضوع إلى أسماء المواضع الكثيرة التي يذكرها عند مرور الظعن بتلك المواضع.

ومثلما نجد في وصف الظعن من صيغ ناشزة وأسماء مواضع غريبة نجد كذلك في وصف الغيث:

أحم رجوف مستهل ربابة
له فرق مُسْحَنْفِرات صوادر
تَصَعَّد في الأحناء ذو عجرفية
أحمَ حبركي مرجف متماطر
ومنه بصخر المحو زُرْق غمامة
له سَبَل وأقورً منه الغفائر
فلما دنا للأبتين تقوده
جوافل دهم بالرباب عواجر
رسا بين سَلْع والعَقيق وفارع
إلى أُحُد للمُزن فيه غشامر
بأسحمَ زَحّاف كأن ارتجازه
توعد أجمال لهن قراقر
فكل مسيل من تهامة طيب
تسيل به مُسْلَنْطِحَات دعاثر[1]

فأية بداوة نحسّها أشد مما نحسّها في كلمة مُسْحَنْفِرات ومُسْلَنْطِحات وذو عجرفية وحبركي وأقورً والغفائر وعواجر وغشامر وقراقر ودعاثر.

---

(١) أحم: أسود. الرباب: السحاب الذي يكون دون السحاب، قد يكون أسود وقد يكون أبيض. مُسْحَنْفِرات: واسعة. عجرفية: سرعة. الحبركي: الفرس يكون طويل الظهر قصير الرجلين. السَبَل: المطر النازل قبل أن يصل الأرض. دهم: سود. أسحم: أسود.

فبينما نقرأ له قصيدة كاملة في الغزل قد تبلغ حوالي الأربعين بيتاً كلزوميته اللاّمية ومثلها كل شعره في الغزل والمديح والرثاء والفخر والهجاء الذي قلّما نقف فيه على كلمة غريبة ترانا إذا قرأنا له قصيدة أو أبياتاً في وصف الإبل أو الظعائن أو البيداء أو الغيث قلّما نصادف فيها كلمة مألوفة معروفة كما رأينا في النصوص السابقة.

ولا شك أن استعماله لغريب اللغة في وصف الإبل والظعن والأطلال والرسوم والبيد والغيث لا يُعَدُّ تقليداً متكلّفاً لسنن الشعراء الذين سبقوه دون أن يكون ثمة صلة حقيقية ببيئته التي عاشها. فقد نشأ كُثيِّر في أطراف البادية يرعى الإبل ويبيعها ثم قضى حياته يجوب بناقته البوادي بين الحجاز والشام ومصر والعراق واليمن وخراسان. وكانت حبيبته عزّة كثيراً ما تنتقل مع قبيلتها، فيصف ارتحالها وأظعانها وأطلالها ورسومها التي عفتها ودرستها الليالي والرياح والأمطار ويستقي القطر لعهودها الأولى ومنازلها الجديدة وهو في كل ذلك بدوي الألفاظ والمعاني.

وطبيعيّ أن يصف وينعت الإبل والظعن والأطلال والرسوم والبيد والغيث بأوصاف ونعوت مستمدة من صميم بيئته هذه التي قد انعكست. صورها انعكاساً صادقاً في شعره.

ومن الملاحظ أنه كان يعنى عناية بالغة في مقدمتها التي تشتمل على وصف ناقته وما لاقته في سفرها للممدوح وما لاقاه هو في تلك البيداء المقفرة المخوفة ليطرب ويمتع ممدوحه بوصفه

ذاك من ناحية وأملاً في مضاعفة جائزته من ناحية أخرى. زد على ذلك أن الحديث عن البوادي هو حديث محبب تشرئب له الأعناق وتتشوق له النفوس. فلا أحب من حديث السفر في تلك البيد المقفرة المحفوفة بالأخطار، خاصة إذا كان بألفاظ البادية ولهجتها، لأنها أشدّ إيحاءً بجوها وأقوى وأجمل تعبيراً عن بيئتها، لذا كان كُثَيِّر يرصد ما كان يقع عليه بصره في ثناياها وشعابها وأعماقها وأجوائها ممعناً وراء شواردها وأوابدها لينظمها في قوافيه...

الخاتمة

سأحاول في هذا البحث، أن أقدم دراسة علمية أدبية جدّية، تتحدث عن حياة كُثَيِّر وعن شعره. ولذا بدأت بدراسة عصره، الذي بحثت فيه عن قرية كُلَيَّة الحجازية التي ولد ونشأ فيها الشاعر، وذكرت انتقاله إلى المدينة المنورة التي قضى شطراً من حياته فيها. ومن ثم تحدثت عن الحياة الاجتماعية في بيئته وأشرت إلى ما ظهر فيها من عصبيات قبلية ومنازعات حزبية وسياسية وعما رافق ذلك من بؤس وقسوة في العراق وثروة ورخاء في مناطق الحجاز والشام. وعرضت بعد ذلك الحياة الفكرية في عهد الأمويين فبيّنت حركتها في المدن الإسلامية الكبرى كالمدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق والفسطاط وذكرت أبرز العلماء والشعراء الذين ظهروا فيها وأظهرت النشاط الفكري الكبير الذي تمثّل في مجالس الخلفاء الذين شجّعوا الأدباء والشعراء وأمدُّوا الحركة الفكرية بالقوة والنشاط عن طريق الأموال الكثيرة التي بذلوها في هذا السبيل. وانتقلت بعد ذلك إلى سيرة حياة الشاعر فبدأت بتحقيق اسمه ونسبه وتعرضت لكناه وألقابه وأسباب تلقّبه وتكنّيه بها وتأثيرها في نفسه.

وجهدت في التعرف على نشأته الأولى علّني أجد فيها ما

يلقي الضوء على اتجاهات حياته فيما بعد. ولكنني لم أجد في بطون المصادر إلّا ومضات خافتة ومتقطعة بحيث لم أعرف من أمر صباه سوى أنه نشأ في رعاية عمه الذي اشترى له قطيعاً من الإبل ليتمرس به على خوض معترك الحياة، ثم بدأ بعد ذلك يبيع الإبل في «الجار» سوق المدينة على البحر الأحمر أو يبيعها في مكة أثناء مواسم الحج. ثم رأيناه صاحب حانوت في المدينة يبيع فيه الخيط والثوب والقطران ويديره غلامه. أمّا أبوه فلا نعرف شيئاً عن شؤونه سوى أن كُثَيِّراً كان عاقاً له مما يدلُّ على أنه شب راتعاً في حمى عمه وفي رعايته. ولا شك أن حالته المعوزة هذه كانت من الأسباب التي اضطرته إلى التقلب في عقيدته والى التكسّب بشعره وكان أول خليفة اتصل به ومدحه هو عبد الملك بن مروان الذي انتقل إلى بلاطه قبل مبايعة محمد ابن الحنفية له. كما مدح الخليفة عبد العزيز وابنه عمر ويزيد بن عبد الملك. وكان مخلصاً في مديحه لعبد العزيز ولابنه عمر الذي كان يسميه عمر الخيرات. أما عبد الملك فمدحه رهبة ورغبة. وكان يستهل قصائده بوصف رحلاته وناقته. وأشرنا إلى قِصَره ودمامته وما كان لهما من رد فعل شديد ظهر في كبريائه المتناهية وعن بعض شمائله كجرأته وسرعة بديهته وأريحيته.

ورجّحت أنه ولد عام ٢٣ ومات عام ١٠٥ هجرية في المدينة عن ثلاث وثمانين سنة.

وانتقلت إلى أهم أغراضه الشعرية وكان أولها غزله العذري

الذي أنشده في حب عَزَّةَ وفي غرامه وهيامه بها. وأثبتُّ أنه كان صادق الصبابة في حبّه لها. وأوردت طائفة من أشعاره فيها. وبيّنت أن هذا الحب كان نموذجاً خالداً لقصص العشاق المثاليين الذين نشأوا في المراعي. وأظهرت أن عَزَّةَ قد بادلته هذا الحب. الذي ظلّ وفياً له بالرغم من أنها تزوجت غيره. وعرضت بعد ذلك المعنى اللغوي لكلمة حب التي تعني الثبات والتعلّق والدوام. وتحدثت فيما بعد عن نشأة الغزل العذري وعن الأسباب التي دفعت إلى تسميته بهذا الاسم.

أمّا الغرض الثاني الذي توسّعت في الحديث عنه فهو الشعر السياسي الذي يقسّم إلى مرحلتين متناقضتين. فعرضت في المرحلة الأولى شعره الذي كان يتشيّع فيه لآل البيت ويذهب مذهب الكيسانية التي تقول بإمامة محمد ابن الحنفية بعد إمامة علي والحسن والحسين الذين أوصى لهم الرسول (ﷺ) بالخلافة. ونص عليهم ودعا إلى مبايعتهم والسمع والطاعة لهم. وبغيبة محمد بن الحنفية في جبل رَضْوَى وبالرجعة والبِدَاء..

وعرضت في المرحلة الثانية شعره الذي قاله في مدحه عبد الملك وفي تأييد سياسته والإشادة بكرمه وشجاعته. وفي مدح معظم خلفاء بني مروان الذين ضرب على وترهم في أن الله هو الذي اختارهم لخلافة المسلمين وفي أنهم متبعون كتاب الله وسُنّة رسوله والخلفاء الراشدين في قيادة المسلمين. وبهذا نقض ما كان يؤمن به. وأوضحت أن ذلك لم يكن صادراً عن إيمانه بما يقول

لأنه عاد إلى إظهار تشيعه حينما تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز.

ونظم كُثَيِّر إلى جانب هذين الغرضين في سائر الأغراض الشعرية المعروفة كالوصف والفخر والمدح والهجاء والظعن والحكم التي بث الكثير منها في قصائده.

ثم إنّ شعره قد امتاز ببعض الخصائص الفنيّة: كالإحكام في البناء واستقصاء معاني الموضوع، والعناية بموسيقى القصيدة، واستعمال المحسنات اللفظية كالتشبيه والاستعارة والكناية والجناس وسواها. وكانت ألفاظه وتعابيره تتفاوت بين الوضوح والغرابة والسهولة والتعقيد بحسب بعد الموضوع عن البداوة أو قربه منها. وكان يختار لقصائده البحور الطويلة: كالطويل والمديد والوافر لأنها أدعى للفخامة التي ينشدها لفنّه؛ على أنه نظم بعض القصائد على البحور القصيرة كالبسيط والمنسرح والسريع والرجز.

أما قوافيه فكان يلتزم فيها لزوم ما لا يلزم كما رأينا في ثلاث قصائد منها لاميته المشهورة التي بلغت حوالي الخمسين بيتاً وكلها في عَزَّةَ.

وبيّنا أنه لم يكن أول من استعمل لزوم ما لا يلزم في القوافي، بل استعمله قبله شعراء الجاهلية كالأعشى وزهير وامرىء القيس وطرفة وشعراء الإسلام كالحطيئة وجميل بثينة. وهو قد بنى قوافيه على معظم حروف المعجم كما عرفنا سابقاً. .

مختارات من شعر كثير عزة
في
الغزل وفي الأغراض الأخرى المتنوعة

١ ـ في الغزل العذري:

قال كُثَيِّر يتغنّى بعَزَّةَ ويتغزّل بحبها:

خليليَّ هـذا رَبـعُ عَـزَّةَ فـاعْـقِـلا
قُلُوْصَيْكُما ثمَّ ابكيا حيثُ حَلَّتِ

ومُسَّا تُـرابـاً كـان قـد مَسَّ جِلدهـا
وبِـيتـا وظِـلَّا حـيثُ بـاتَـتْ وظَلَّتِ

ولا تيـأسـا أنْ يمحـو الله عنـكُمـا
ذنـوبـاً إذا صَـلَّيْتـمـا حيثُ صلّتِ

ومـا كنتُ أدري قبـلَ عَـزَّةِ مـا البُكـا
ولا مـوجعـاتِ القلبِ حتـى تـولَّتِ

ومـا أنصفتْ أمّـا النِسـاءَ فبَغّضَـتْ
إليـنـا وأمـا بـالـنـوالِ فـضـنَّـتِ

فقـد حلَفَتْ جَهْـداً بمـا نحـرَتْ لـه
قُـرَيشُ غـداة الـمـأزِمَيْـنِ وصلّتِ

أُناديكِ ما حجَّ الحَجيجُ وكَبَّرتْ
بفَيفاءِ آلٍ رُفقةٌ وأهَلَّتِ
وما كبّرَتْ من فوقِ رُكبةَ رُفقة
ومن ذي غزالٍ أشعرتْ واستهلَّتِ
وكانت لقطعِ الحبلِ بيْني وبينها
كناذرةٍ نذراً وفتْ فأحلّتِ
فقلت لها يا عزَّ كلُّ مُصيبةٍ
إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذلّتِ
ولم يلْقَ إنسانٌ من الحُبِّ ميعةً
تَعُمُّ ولا عَمياءَ إلّا تجلَّتِ
فإن سألَ الواشونَ فيمَ صَرَمْتَها
فَقلْ نفسُ حُرٍّ سُلِّيت فتسلَّتِ
كأنّي أُنادي صخرةً حين أعرضتْ
من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زلّتِ
صفوحٌ مما تلقاكَ إلّا بخيلةً
فمن ملَّ منها ذلك الوصل ملّتِ
أباحتْ حِمىً لم يرعَه الناس قبلها
وحلّت تلاعاً لم تكُن قبل حُلَّتِ
فليتَ قلوصي عند عزَّةَ قُيِّدت
بحبلٍ ضعيفٍ غُرَّ منها فضلّتِ

وغـــودر في الحي المقيمين رحـلـهـــا

وكـــان لـــهـــا بـــاغٍ ســـوايَ فـبـــلَّتِ

وكنت كـذي رجلين رِجـلٍ صحيحةٍ

ورِجـــلٍ رَمى فيهـــا الـــزّمـــانُ فشَلّتِ

أُريـــدُ الـثّـــواء عِـنْـــدهـــا وأظُـــنّـهـــا

إذا مـــا أطلنـا عِـنـــدهَـــا المُكث ملّتِ

يُكلِّفهـــا الخنـزيـــرُ شتمي ومـــا بهـــا

هـــواني ولكـــن للمـلـيـــكِ اسْتَـــذَلَّـــتِ

هَنِيئـــاً مـــرِيئـــاً غـيـــر داءٍ مخـــامـــرٍ

لعـــزّةَ من أَعْـــراضِنـــا مـــا اسْتحلّتِ

ووالله مـــا قـــارْبـــتُ إلاّ تـبـــاعـــدتْ

بـــصـــرْمٍ ولا أكـــثـــرْتُ إلاّ أقـــلّـتِ

ولـي زَفـــراتٌ لـــو يَـــدُمْـنَ قَـتَلْـنـني

تـــوالي التي تـأتي المُنى قـــد تـــولّتِ

وكنّـــا سلكْنـا في صَعـــودٍ من الهـوى

فـــلمّـــا تـــوافـيـــنـــا ثَـبـــتُّ وزلّـــتِ

وكنـا عقَـدْنـا عُقـدة الـــوصـلِ بيننـــا

فـــلمّـــا تـــوثـقـــنـــا شـــددتُ وحـلّتِ

فـإن تكنِ العُتبى فـأهـــلاً ومـــرحبـــاً

وحَقّتْ لهـــا العُـتبـى لـــدينـا وقـلّتِ

خـليـليَّ إنّ الـحـــاجـبـيّـــة طـلّحـتْ

قُلـوصـيكمـا ونـــاقـتـي قـــد أكـلّتِ

فلا يبعدنْ وصلٌ لعزّةَ أصبحت
بعاقبةٍ أسبابه قد تولّتِ
أسيئي بِنا أو أحسني لا ملومةً
لدينا ولا مقليّةً إن تقلّتِ
ولكن أنيلي واذكري من مودّةٍ
لنا خُلّةً كانت لديكْم فضلّتِ
وإنّي وإن صدّتْ لُمثنٍ وصادق
عليها بما كانت إلينا أزلّتِ
فما أنا بالدّاعي لعزّة بالردى
ولا شامتٍ إن نعلُ عزَّةَ زلّتِ
فلا يحسبِ الواشون أن صبابتي
بعزّة كانتْ غمرةً فتجلّتِ
فواللهِ ثمّ واللهِ لا حلَّ بعدها
ولا قبلها من خُلّةٍ حيثُ حلّتِ
وما مَّر من يوم عليَّ كيومها
وإن عظمتْ أيامُ أخرى وجلّتِ
وحلّت بأعْلى شاهقٍ من فؤاده
فلا القلب يسلاها ولا النفسُ مَلَّتِ
فواعجباً للقلب كيف اعترافُهُ
وللنّفس لمّا وطِّنَتْ فاطمأنّتِ

وإني وتهيامي بعزّةَ بعدما
تخلّيتُ ممّا بيْننا وتخلّتِ

لكالمُرتجي ظِلَّ الغمامةِ كُلّما
تبوّأ منها للمقيل اضمحلّتِ

كأنّي وإياها سحابةُ مُمحِلٍ
رجاها فلمَّا جاوزتْه استهلّتِ

وقال كُثَيِّر أيضاً متغزِّلاً بِعَزّة:

أُريد لأنْسَى ذكرها فكأنما
تمثّلُ لي ليلى بكُلِّ سبيلِ

إذا ذُكِرَتْ ليلى تغشّتْك عَبْرَةٌ
تُعلُّ بها العَيْنان بعد نهولِ

وكم من خليلٍ قال لي لو سألتَها
فقلتُ نعم ليلى أضَنُّ خليلِ

وأبعدُه نيلاً وأوشكه قِلىً
وإن سُئلتْ عُرْفاً فشرُّ مسولِ

حلفتُ بِربِّ الرَّاقصاتِ إلى مِنىً
خلال الملأ يمددن كلَّ حديلِ

يمين امْرىء مستغلظٍ بأليّةٍ
ليُكذِبَ قيلاً قد ألحَّ بقيلِ

لقد كذب الواشون ما بُحتُ عندهم
بليلى ولا أرسلْتُهُمْ برسيلِ

فإن جاءكِ الواشون عني بكذبةٍ
فَروْها ولم يأتوا لها بحويلِ

فلا تعجلي يا ليلَ أن تتفهّمي
بنصح أتى الواشون أم بحبُولِ

فإن طبتِ نفساً بالعطاء فأجزلي
وخيرُ العطايا، ليلَ، كُلُّ جزيلِ

وإلّا فإجمالٌ إليَّ فإنّني
أُحبُّ من الأخلاقِ كُلَّ جميلِ

فإنْ تبذُلي لي منكَ يوماً مودّةً
فِقْدماً صنعتِ القرض عند بَذولِ

وإن تبخلي يا ليلَ عنّي فإنني
توكّلُني نفسي بكُلِّ بخيلِ

ولست براضٍ من خليلي بنائلٍ
قليلٍ ولا راضٍ له بقليلِ

وليس خليلي بالملول ولا الذي
إذا غبتُ عنه باعني بخليلِ

ولكن خليلي من يدومُ وصالهُ
ويحفظ سرّي عند كُلِّ دخيلِ

ولم أرَ من ليلى نوالاً أعدُّه
إلّا رُبّما طالبتُ غيرَ مُنيلِ

يلومك في ليلى وعقلك عندها
رجالٌ ولم تذهبْ لهمْ بعقولِ

يقولون ودّعْ عنك ليلى ولا تهِم
بقاطعةِ الأقران ذاتِ حليلِ

فما نقعتْ نفسي بما أُمروا به
ولا عجتُ من أقوالهم بفتيلِ

تذكرتُ أتراباً لعَزّةَ كالمها
حُبينَ بليطٍ ناعمٍ وقبولِ

وكنتُ إذا لاقيتهُنَّ كأنّني
مخالطةً عقلي سلافُ شمولِ

فأبدين لي من بينهنّ تجهّماً
وأخلفْنَ ظنّي إذ ظننتُ وقيلي

فلأياً بلأيٍ ما قضين لُبانةً
من الدَّارِ واستقَلَلن بعد طويلِ

سلكت سبيل الرَّائحات عشيَّة
مخارمَ نِصْعٍ أو سلكن سبيلي

فأسعدتُ نفساً بالهوى قبل أن أرى
عواديَ نأيٍ بيننا وشُغولِ

ندمتُ على ما فاتني يومَ بنتُمُ
فيا حسرتاً ألّا يرين عويلي

أقيمي فإن الغَورَ يا عزَّ بعدكمْ
إلـيَّ إذا ما بنتِ غير جميلِ
كفى حَزَناً للعين أن راء طَرْفُها
لعزَّة عِيراً آذنت برحيلِ
وقالوا نأتْ فاخترْ من الصَّبْرِ والبُكا
فقلتُ البُكا أشفى إذاً لغليلي
فولّيتُ محزوناً وقلتُ لصاحبي
أقاتلتي ليلى بغيرِ قتيلِ
لعزّة إذ يحتلُّ بالخَيفِ أهْلُها
فأوحشَ منها الخَيفُ بعد خلولِ
وبَدَّل منها بعد طولِ إقامةٍ
تبعُّثُ نكباء العشيِّ جفولِ
لقد أكثر الواشون فينا وفيكُمُ
ومال بِنا الواشون كلَّ مميلِ
وما زلتُ من ليلى لدن طرَّ شاربي
إلى اليوم كالمقصَى بكُلِّ سَبيلِ

وقال في صدق الوعد والثبات على العهد:

ولقدْ لقيتَ على الدُّرَيْجةِ ليلةً
كانتْ عليكَ أَيامِناً وسُعودا
لا تَغْدُرَنَّ بوصْلِ عَزَّةَ بعدما
أخذتْ عليك مواثِقاً وعُهُودا

إنّ المُحِبَّ إذا أحبَّ حبيبَهُ
صَدَقَ الصَّفاءَ وأنْجزَ الموعودا
الله يعلم لو أردْتُ زيادةً
في حُبِّ عزَّةَ ما وجدْتُ مَزيدا
رُهبان مَدْيَنَ والذينَ عهِدتُهُمْ
يبكون من حذرِ العذابِ قُعودا
لو يسمعون كما سمْعتُ كلامها
خرُّوا لعزَّةَ رُكَّعاً وسُجودا
والمْيتُ يُنْشرُ أن تمسَّ عظامَهُ
مسّاً ويَخْلُدُ أن يراكِ خُلودا

وقال في هذا المعنى أيضاً:

فأقسمتُ لا أنساكِ ما عِشْتُ ليلةً
وإن شاحتْ دارٌ وشطَّ مزارُ
أُحبّكِ ما دامتْ بنْجدٍ وشيحةٌ
وما ثَبَتَتْ أبلى به وتِعارُ
وما استنَّ رَقْراقُ السَّرابِ وما جَرَتْ
من الوحشِ عصماءُ اليدين نوارُ
وما سال وادٍ مِنْ تِهامَةَ طيّبٌ
به قُلُبٌ عادّيةٌ وكِرارُ
سقاها من الجوزاء والدَّلْوِ خلفةً
مباكيرُ لم ينْدِبْ بهنَّ صرارُ

بــدرّةِ أبكــارٍ من المـزنِ مــا لهــا
إذا مــا استهـلّتْ بــالنـجــاد غــوارُ
وفــيـهــا عـلى أن الـفـؤادَ يـحـبُّـهــا
صــدودٌ إذا لاقــيــتــهــا وذِرارُ
وإنـى لآتـيـكـم عـلى كـلم الـعــدا
وأمشي وفي الممشـى إليـك مـشــارُ

وها هو يشكو إلى الله حُبَّ عزّة فيقول:

إلى الله أشكــو لا إلى النـاس حبّهــا
ولا بــدّ من شكــوى حـبيـب مــودعُ
إذا قلتُ هــذا حيـن أسلو ذكــرتـهــا
فــظلّت لهــا نفسي تـتــوقُ وتنــزعُ
ألا تـتّـقـيـنَ الله فـي حـبٍّ عــاشــقٍ
لــه كـبـدٌ حــرّى عـلـيــكَ تـصــدّعُ
وأصبحتُ ممــا أحدثَ الـدهرُ خـاشعاً
وكنتُ لـريـبِ الـدهــر لا أتضعضــعُ
فمــا في حيـاةٍ بعــد مـوتــك رغبــةٌ
ولا في وصــالٍ بعـد هجـرك مـطمـعُ
ومــا لـلهــوى والحـبّ بعــدك لــذّةٌ
ومـات الهـوى والحب بعــدك أجمـعُ
إذا قلتُ هــذا حيـن أسلو وأجتــري
على هجـرك ظلّتْ لهـا النفس تشفـعُ

وإن رمتُ نفسي كيف أني هجـرتهـا
ورمتُ صـدوداً ظلت العين تـدمـعُ
فيـا قلبُ خبـرني فلستَ بفـاعـلٍ
إذا لم تنـلْ واستأسـرتْ كيف تصنعُ
وقـد قرع الـواشون منهـا لـك العصـا
وإنّ العصـا كانت لـذي الحلم تقـرعُ
فيـا ربّ حببْني إليـهـا واعـطني الـ
ـمودة منها، أنت تعطي وتمنعُ

هجران عَزّةَ يؤذيه وهو لا يقوى عليه:

ولي كبـدٌ قـد بـرّحتْ بي مـريضـةٌ
إذا سُمتُهـا الهجـران ظلّت تَصَـدّعُ
فأصبحتُ مما أحـدث الدهـر خاشعـاً
وكنت لـريب الـدهـر لا أتخشّـعُ
وعُـروةُ لم يلقَ الـذي قـد لـقيتُـهُ
بـعفـراءُ والنّـهـديُّ مـا أتـفـجّـعُ
وقـائـلة دَعْ وصـلَ عـزّةَ واتـبـعْ
مـودّةَ أخـرى وابْلُهـا كيف تصنـعُ
أراك عـليهـا فـي الـمـودّةِ زاريـاً
ومـا نلتَ منهـا طـائـلاً حيث تسمـعُ
فـقلتُ ذريـني بئسَ مـا قـلتِ إنـني
على البخـل منها لا على الجـود أتبعُ

وأعـجبـني يـا عَـزَّ منـكِ خـلائِقٌ
كـرامٌ إذا عُـدَّتِ الـخـلائِقُ أربـعُ
دنّـوكِ حتى يـذكـر الجـاهـل الصبا
ودفعُـكِ أسبـاب المُنى حين يـطْمعُ
فـوالله مـا يـدري كـريم مـطلتـه
أيـشـتـدُّ إن لاقـاكِ أم يـتـضـرّعُ
ومُـنهـنَّ إكـرام الـكـريـم وهـفـوة
الـلئيـم وخـلّاتُ المـكـارم تـنـفـعُ
بخلتِ فكـان البُخْلُ منـكِ سجيّـةً
فليتـكِ ذو لـونينِ يـعـطي ويمنـعُ
وإنـك إن واصلتِ أعلمْتِ بـالـذي
لديك فلم يـوجدْ لـكِ الدهـرَ مطمعُ
فيـا قلبُ كُنْ عنهـا صبـوراً فـإنهـا
يُشيِّعُهـا بـالـصبـرِ قـلبٌ مُشيّـعُ
وإنـي عـلى ذاك الـتجـلّدِ إنـنـي
مُـسِـرٌّ هـيـامٍ يَـسْـتَـبِـلُّ ويُـردعُ
أتى دون مـا تخشـون من بثِّ سـرّكم
أخـو ثـقـةٍ سْهـلُ الـخـلائقِ أروعُ
ضنينٌ ببـذلِ الســرِّ سمـحٌ بـغيـرِهِ
أخـو ثقـةٍ عفٌّ الـوصـال سمَيْـدعُ
أبى أن يُبثَّ الـدهر مـا عـاش سِـرّكُمْ
سليمـاً ومـا دامت لـه الشمس تـطلعُ

وإني لأستهـدي السحـائب نحـوهـا
من المنـزل الأدنى فتسـري وتُسـرِعُ

اجتمع عمر وجميل وكُثَيِّر على باب عبد الملك فلمّا أَذِنَ لهم، قال لهم: أنشدوني أرقّ ما قلتم في القوافي فأنشده كُثَيِّر في عَزَّةَ الأبيات التالية:

بـأبـي وأُمّـي أنـتِ مِنْ مـظلومـةٍ
طَبِنَ الـعـدوُّ لهـا فـغيَّـرَ حـالـهـا
لـو أنّ عزَّةَ خـاصمتْ شمس الضُّحى
في الحسنِ عنـد مـوفقٍ لقضى لهـا
وسـعـى إلـيّ بِـصَـرْمِ عـزَّةَ نِـسْـوَةٌ
جعـلَ المليـكُ خُـدُودَهُنَّ نِعـالهـا

وقال في عتاب عَزَّة:

يقـول العِـدا يـا عَـزَّ قـد حـال دونكم
شُجـاعٌ على ظهـرِ الـطّريقِ مُصَمِّمُ
فـقـلتُ لـهـا والله لـو كـان دونكُمْ
جـهـنَّمُ مـا راعـتْ فـؤادي جـهـنّمُ
وكيف يـروعُ القلبَ يـا عـزَّ رائـع
ووجهُـكِ في الـظّلْمـاءِ للسَّفْـرِ مَعْلَمُ
وما ظلمْتكِ النّفسُ يـا عزّ في الهـوى
فـلا تنْقُمي حُـبِّي فـمـا فيـه مَنْقَمُ

٢ ـ في المدح:

كتب عبد الملك إلى محمد ابن الحنفية: «أنه قد بلغني أن ابن الزبير قد ضيّق عليك وقطع رحمك واستخفّ بحقك حتى تبايعه، فقد نظرت لنفسك ودينك وأنت أعرف به حيث فعلت ما فعلت وهذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلو رحمك وعارفو حقك» فقال ابن الحنفية (وهو رئيس فرقة الكيسانية)لأصحابه: هذا وجه نخرج إليه فخرج ومعه كُثَيِّر عَزَّة ولهذا قال في مدحه:

هُديت يا مهديّنا ابن المهتدي
أنت الذي نرضى به ونرتجي
أنت ابن خير الناس من بعد النبي
أنت إمام الحقّ لسنا نمتري
يابن عليٍّ سرْ ومن مثل عليٍّ
حتى تحل أرض كَلْبٍ وَبَلِي

ومدحه في موضع آخر وأشاد بشجاعته وفضائله فقال:

لك الويل من عيني خُبَيْبٍ وثابتٍ
وحمزة أشباه الحِداء التوائمِ
تُخبِّرُ من لاقيتَ أنك عائذ
بل العائذ المحبوس في سجن عارمِ
ومن يرى هذا الشيخَ بالخَيْفِ من منىً
من الناس يعلم أنه غير ظالمِ

وصيُّ النبي المصطفى وابن عمّه
وفَكّاكَ أغلالٍ وقاضي مغارمِ
أبى فهو لا يشري هُدى بضلالة
ولا يتقي في الله لومةَ لائمِ
ونحن بحمد الله نتلو كتابه
حلولاً بهذا الخَيْف خَيْف المحارمِ
بحيثُ الحمام آمن الروع ساكن
وحيثُ العدوُّ كالصديق المسالمِ
فما رونق الدنيا بباقٍ لأهلهِ
ولا شدة البلوى بضربةَ لازمِ
فلا تجزعن من شدةٍ إنّ بعدها
فوارج تلوي بالخطوب العظائمِ

أما مدائحه في بني مروان فهي الأهم والأكثر ومن ذلك هذه القصيدة التي يمدح بها عبد الملك بن مروان فيقول:

تذكرتُ أن النفسَ لم تَسْلُ عنكُمْ
ولم تقضِ مِنْ حبّي أميَّةَ بالها
وأنّي بذي دَوْرانَ تلقى بك النوى
على بَردى تَظعانَها فاحْتمالها
أصاريمَ حَلَّتْ منهمُ سَفْحَ راهطٍ
فأكنافَ تُبْنَى مَرْجَها فتلالها

كـأنَّ القِيـانَ الـغُـرَّ وسْطَ بيـوتـهمْ
نِعـاجٌ بِجـوٍّ مِنْ رمـاحٍ خَـلالهـا

لهُم أنْـديـاتٌ بـالعشيّ وبـالضُّحى
بَهـا ليلُ يـرْجـوُ الـراغبـونَ نـوالهـا

كـأنَّهـمُ قَـصْـراً مصـابيـحُ راهبٍ
بِـمَـوْزَنَ روّى بـالـسَّـليطِ ذُبـالـهـا

يجـوسـونَ عَـرْضَ العبقـريـةَ نحـوَهـا
تـمسُّ الحـواشـي أو تُلِمُّ نـعـالـهـا

هُمُ أهـلُ ألـواحِ السَّـريـر ويُمنـه
قـرابـينُ أرْدافـاً لـهـا وشِـمـالـهـا

يُـحـيُّـون بُـهْـلولاً بـه ردَّ ربُّـهُ
إلى عبـدِ شمسٍ عـزَّهـا وجمـالهـا

مـسـائـحُ فـوديْ رأسـه مـسَـبـغَـلّةٌ
جـرى مسـك دارين الأحمُّ خـلالهـا

أحـاطتْ يـداهُ بـالخلافـةِ بَعْـدَمـا
أرادَ رجـالٌ آخـرون اغْـتيـالـهـا

فـمـا تـركـوهـا عَنْوةً عن مَوَدَّةٍ
ولكن بِحـدِّ المَشْـرفيّ اسْتقـالـهـا

هـو المرْء يُجْـزي بِـالمـودَّةِ أهلهـا
ويَحـذُو بِنَعـلِ المستثيبِ قبـالـهـا

بلوْهُ فأعطَوْهُ المقادة بعدما

أدبَّ البلاد سَهْلَها وجبالها

مقانبَ خَيْلٍ ما تزالُ مُظلَّةً

عليْهمْ فملّوا كلَّ يومٍ قتالها

دوافِعَ بالرَّوْحاء طوْراً وتارةً

مخارِمَ رَضْوى مرجَها فرِمَالها

يُقيِّلْنَ بالبزْواء والجيْشُ واقفٌ

مزادَ الرَّوايا يصْطَبِبْنَ فِضالها

وقد قابَلَتْ منها ثرىً مستجيزةً

مَباضِعَ في وجهِ الضُّحى فثُعالها

يُعانِدْنَ في الأرسان أجواز بُرزَةٍ

عِتَاقَ المطايا مُسْنِفاتٍ حبالها

فغادرْنَ عَسْبَ الوالقيّ وناصحٍ

تخُصُّ به أمُّ الطريقِ عيالها

على كل خِنْذيذِ الضُّحى متمطِّرٍ

وخيْفاتةٍ قد هذَّبَ الجرْيُ آلها

وخيْلٍ بعاناتٍ فسِنَّ سُمَيْسرةٍ

له لا يَرُدُّ الذَّائدونَ نِهالها

إذا قيل خيْلُ الله يوماً ألا اركبي

رضيت بكفِّ الأردُنيّ انسِحالها

إذا عــرضتْ شهبــاءُ خــطّارةُ القنــا
تــريـك السيـوف هـزّهـا واستـلالهـا

رميتَ بـأبنـاء العُـقيميّـةِ الـوغى
يؤمُّـون مشيَ المشبـلاتِ ظـلالهـا

كـأنهـمْ آسـادُ حَـلْيَـةَ أصبـحـتْ
خـوادرَ تحمي الخيـلَ ممّنْ دنـا لها

إذا أخـذوا أدراعَـهُـمْ فـتسـربـلوا
مُـقَـلَّصَ مَـسْـرُودَاتِـهـا وَمُـذالـهـا

رأيتَ المنـايا شـارعـاتٍ فـلا تكن
لهـا سَنَنَـاً نصبـاً وخـلِّ مجـالهـا

وحـربٍ إذا الأعـداء أنْشَتْ حيـاضهـا
وقلّبَ أمراسُ السَّواني محالها

وردتَ عـلى فُـراطهـمْ فـدهمتَـهـمْ
بأخطار موت يَلْتَهِمْنَ سجالها

وقـاريـةٍ أحـواضَ مـجـدَك دونهـا
ذيـاداً يُبيـلُ الحـاضنـاتِ سخـالهـا

قصـدتَ لهـا حتى إذا مـا لقيـتَهـا
ضربتَ بِبُصْرِيَ الصفيح قَذالَها

وكـنتَ إذا نـابتْـكَ يـومـاً مُلِمّـةٌ
نَـبَلْتَ لـهـا أبـا الـوليـد نِبـالهـا

سمـوت فـأدركْتَ الـعـلاء وإنمـا

يُلقّى عليّـاتِ العُـلا من سمـالـهـا

وُصِلْتَ فنـالتْ كفُّـكَ المجـدَ كُـلَّهُ

ولم تَبْلُغِ الأيـدي السَّـوامي مصـالهـا

على ابن أبي العـاصي دِلاصٌ حصِينةٌ

أجـادَ المُسـدّي سـردهـا وأذالهـا

وكـانـوا ذوي نُعمى فقـد حـال دونهـا

ذوو أنعمٍ فيمـا مضى فـاستحـالهـا

فـلا تـكـفـروا مـروانَ آلاءَ أهـلِهِ

بني عبـد شمسٍ وأشكـروهُ فعـالهـا

أبـوكمْ تـلافى قُبّـةَ المُلكِ بعـدمـا

هَـوَى سَمْكهـا وغـيّر النـاسُ حـالهـا

إذا النـاسُ سـامـوهـا حيـاةً زهيـدةً

هي القتـلُ والقتلُ الـذي لا شوى لهـا

أبـى الله لـلشـمِّ الألاءِ كـأنّـهُـمْ

سيـوف أجـاد القينُ يـومـاً صقـالهـا

فـللّه عيـنـا مَنْ رأى مـن عـصـابـةٍ

تُنـاضِـلُ عن أحسـابِ قـومٍ نضـالهـا

وإن أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن هُـوَ الـذي

غـزا كـامنـاتِ النّصح منّي فنـالهـا

وإنــي مــدلٌّ أدّعــي أن صــحــبــةً
وأسبــاب عهــد لم أقــطّعْ وصــالهــا
فــلا تجعلنّي فــي الأمــور كعــصبــةٍ
تبــرَّأتُ منهــا إذ رأيت ضــلالــهــا
عــدوٌّ، ولا أخــرى صــديقٍ ونصحُهــا
ضَعيـفٌ وبثُّ الـحقِّ لـمّــا بــدا لها
تــبلّجَ لـمّــا جئتُ واخضــرَّ عــودُهُ
وبــلَّ وسيــلاتــي إلــيــهِ بِــلالــهــا

وقال يمدحه أيضاً:

دعينــا ابنــة الكعبيِّ والمَجَــد والعُلى
وراعي صِــواراً بــالمــدينــةِ أحْسَبَــا
أبــوك الــذي لمّــا أتى مَــرْجَ راهطٍ
وقــد ألَّبــوا للشَّــرِّ فيمــن تــألّبــا
تــشنّــأ لــلأعــداء حــتى إذا انــتهــوا
إلى أمــره طَــوْعــاً وكُــرْهــاً تحبّبَــا

ومــدح عمر بن عبد العزيز فقال:

فكم من يتــامى بُؤَّسٍ قــد جَبَــرْتَهــا
وألبستهــا مِنْ بعــدِ عُــرْيٍ ثيــابهــا
وأرمــلةٍ هــلكى ضِــعــافٍ وَصَلْتــهــا
وأســرى عُناةٍ قــد فككتَ رقــابهــا

فتىً بـالـمعـروفِ غَيـر مُـدافـعٍ
كـهـولَ قـريشٍ كلِّهـا وشبـابهـا
أراهـمْ منـاراتِ الـهُـدى مستنيـرةً
ووافـقَ منهـا رُشـدهـا وصـوابهـا
وراضَ بـرفـقٍ مـا أراد ولـم تـزلْ
ريـاضتُـه حتى أذلَّ صعـابـهـا

وقال في مدحه أيضاً:

وفي الحِلْمِ والإسـلامِ للمـرءِ وازعٌ
وفي تَـرْكِ طـاعـاتِ الفُؤادِ المُتيّـمِ
بـصائـرُ رُشْـدٍ لـلفتـى مـستبيـنـةٌ
وأخـلاق صِـدْقٍ عِلْمُهـا بـالتَّعَـلُّمِ
وُلِيتَ فـلم تَشْتِمْ عـليّـاً ولم تُخِـفْ
بـرّيـاً ولـم تقبـلْ إشـارة مجـرمِ
وأظهـرتَ نـورَ الحقِّ فـاشتـدَّ نـورُهُ
على كـلِّ لَبْسٍ بـارقِ الحقِّ مُـظلمِ
وعـاقبتَ فيمـا قـد تـقـدّمْتَ قبلهُ
وأعـرضْتَ عمّـا كـان قبلَ التَّقـدّمِ
وصـدّقْتَ بالفِعلِ المقال مـع الـذي
أتَيْتَ فـأمْسى راضيـاً كـل مُسـلمِ
تـكلّمْـتَ بـالحقِّ المبيـنِ وإنـمـا
تـبيّـنُ آيـاتُ الـهُـدى بـالتّـكـلُّمِ

ألا إنمــا يكفي الـفتى بعــدَ زيْـفِـهِ
مـن الأودِ الـبــادي ثـقِــافُ المـقّـومِ
وقــد لَبِسَـتْ لُبْس الهَـلوكِ ثـيــابهــا
تــراءى لـك الــدُّنيــا بكفٍّ ومِعْصَمِ
فــأعــرضْتَ عنهــا مشمئزّاً كــأنمــا
سقتــك مَـدوفــاً مِنْ سِمــامٍ وعلقَمِ
وقــد كُنتَ من أجبـالهــا في مُمَنَّــعٍ
ومن بحـرها في مُـزْبـدِ المـوج مُفْعَمِ
ومــا زِلتَ تـوّاقــاً إلى كــلِّ غــايــةٍ
بلغْتَ بـهــا أعلى الـبنـاء الـمُقــدَّمِ
فلمّــا أتــاكَ الملكُ عفـواً ولم يكـنْ
لــطالـبِ دُنـيــا بـعْــدَهُ مـن تَـكَـلُّمِ
تــركت الــذي يفنى وإن كــان مُـونقــاً
وآثــرتَ مــا يـبقـى بــرأيٍ مُصَـمَّمِ
وأضــررْتَ بـالفــاني وشمّـرتَ للذي
أمـامـك في يـومٍ من الشَّرِّ مُـظْلِمِ
ومــا لـك إذ كنتَ الخليفــةَ مــانــعٌ
سـوى الله من مــالٍ رغيـبٍ ولا دمِ
سمــا لـك هَـمٌّ في الـفُـؤاد مُـؤرِّقٌ
بـلغتَ بــهِ أعـلى المعــالي بـسُـلَّمِ

فما بين شرْقِ الأرض والغرب كلها
مناد يُنادي من فصيح وأعجم
يقولُ أميرَ المؤمنينَ ظَلَمْتَني
بأخذ لدينار ولا أخْذِ دِرْهَم
ولا بسْطِ كفٍّ لامرىءٍ غير مجرم
ولا السَّفكِ منه ظالماً مِلْءَ محجم
ولو يستطيعُ المسلمونَ لقسَّموا
لك الشَّطْرَ من أعمارهم غير نُدَّم
فعشتَ به ما حجّ لله راكبٌ
مُغِدٌّ مُطيفٌ بالمقام وَزَمْزَم
فاربِحْ بها من صفقةٍ لمبايع
وأعظِمْ بها ثمّ أعظِم

ومدح أيضاً من خلفاء بني مروان يزيد بن عبد الملك فقال:

إلى الأبيض الجعدِ ابن عاتكةَ الذي
له فضلُ ملكٍ في البريةِ غالبِ
كريم يؤولُ الرَّاغبونَ ببابهِ
إلى واسع المعروف جزْل المواهبِ
إمامُ هُدىً قدْ سدَّدَ الله رأيَهُ
وقد أحكمتْهُ ماضياتُ التّجاربِ

ولم يبلُغِ الساعونَ في المجد سعْيهُ
ولم يُفْضِلوا إفضالَهُ في الأقاربِ
جزتكَ الجوازي عن صديقك نُضرةً
وقرَّبْتَ من مأوى طريدٍ وراغبِ
وصاحبِ قومٍ مُعصَمٌ بك حقُّهُ
وجارُ ابن ذي قُربى وآخر جانبِ
رأيتُكَ والمعروفُ منك سجيّةٌ
تَعُمُّ بِخيْرٍ كُلَّ جادٍ وغائبِ
أبوك غداة الجزع من أرض مسكنٍ
يؤم العِدا بالجمع بعد المقانبِ

وها هو في قصيدة ثانية يمدح يزيد بن عبد الملك ويهنئه بالخلافة:

أميرَ المؤمنين إليكَ نَهْوى
على البُخْتِ الصّلادِمِ والعَجومِ
كأن سوالفَ النَّجُداتِ منها
تُقَطِّرُ بالأرَنْدجِ والعصيمِ
إذا اتخذتْ وجوهُ القَوْمِ نَصْبَاً
أجيجَ الواهِجاتِ من السَّمومِ
فكمْ غادرْنَ دونك من جهيضٍ
ومن نَعْلٍ مُطَرَّحةٍ جَذيمِ

يــزُرْنَ عــلى تــنــائــيــهِ يــزيــداً
بــأكــنــاف الــمُــوقَّــرَ والــرَّقــيــمِ
تــهــنّئُــهُ الــوفــودُ إذا أتوْهُ
بــنــصْــرِ اللهِ والــمُــلْكِ الــعَــظيــمِ

٣ ـ في الرثاء:

يقول في رثاء الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

يــا عــينُ بــكــيٍّ لــلذي عــالــنــي
مــنــكِ بــدمْــعٍ مُــسْــبــلٍ هــامِــلِ
يــا جَــعْــدُ بَــكّــيــهِ ولا تــســأمــي
بُــكــاءَ حــقٍّ لــيسَ بــالــبــاطــلِ
إن تَــســتُــري الــمــيــتَ عــلى مِــثْــلِهِ
في الــنّــاس من حــافٍ ومن نــاعِــلِ

وقال في رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

ألا إنّ الأئِــمّــةَ مــن قــريشٍ
ولاةُ الــحــقِّ أربــعــةٌ ســواءُ
عــليٌّ والــثــلاثــةُ مــن بــنــيــهِ
هــم أســبــاطــهُ والأوصــيــاءُ

فــأنــى فــي وصــيّــتــه إلــيــهــم
يــكــون الــشــك مــنــا والــمــراءُ

بــهــم وصّــاهــم ودعــا إلــيــهــم
جميــع الخلق لــو سمــع الــدعــاءُ

فَــسِــبْطٌ سِــبْطُ إيــمــانٍ وبِــرٍّ
وسِــبْطٌ غَــيَّــبــتــه كــربــلاءُ

وسِــبْطٌ لا يــذوقُ الــمــوتَ حــتــى
يــقــود الــخــيــلَ يــقــدمــهــا الــلواءُ

تــغــيَّــب لا يــرى عــنــهــم زمــانــاً
بِــرَضْــوَى عــنــده عــســل ومــاءُ

وفي رثائه لعزّة قيل: «مضى حتى دنا من دمشق فإذا بجنازةٍ فاستعبر وقال: أسأل الله خير ما هو كائن، فسأل عن الميت فإذا هي عزّة فخرّ مغشياً عليه فعرق وصُبّ عليه الماء فكان مجهوده أن بلغ القبر فلمّا دفنت انكبّ على القبر وقال:

سراجُ الدُّجى صِفْرُ الحشا منتهى المنيٍ
كشمْس الضُّحى نــوّامَــةٌ حين تُصْبــحُ

إذا مــا مشت بينَ البيــوتِ تخــزَّلَتْ
ومــالتْ كمــا مــال النّزيفُ المُــرَنَّــحُ

تــعلّقْــتُ عــزّاً وهْــيَ رُؤدٌ شــبــابــهــا
عــلاقــةَ حُبٍّ كــاد بــالقلب يَــرْجــحُ

أقــولُ ونِضْـوي واقفٌ عنــد رَمْسِـهــا
عـليــك ســلامُ الله والعـينُ تـسفَــحُ

فهــذا فِــراقُ الحقِّ لا أن تُــزيــرَني
بــلادك فَـتْــلاءُ الــذِّراعيـنِ صَيْــدحُ

وقــد كنتَ أبكي من فــراقــكِ حيَّــةً
وأنتِ لعَمــري اليــوم أنــأى وأنــزَحُ

فيـا عـزَّ أنتِ البــدرُ قـد حــال دونـهُ
رجيــعُ تُــرابٍ والصَّفيــحُ المضــرَّحُ

فهــلّا فـداك المــوتَ من أنتِ زيْنُــهُ
ومــن هــو أســوا مِنــكِ دلًّا وأقبــحُ

عــلى أمِّ بـكْــرٍ رحْــمــةٌ وتـحـيــةٌ
لهــا منــك والنّــائي يَــودُّ ويـنصَــحُ

مُـنعَّـمــةٌ لــو يـدرجُ الــذَّرُّ بينـهــا
وبين حــواشي بُـرْدِهــا كـاد يجــرَحُ

ومــا نـظرتْ عيني إلى ذي بشــاشةٍ
من النــاس إلّا أنتِ في الـعيـن أملحُ

ألا لا أرى بعــد ابنــةِ النَّضْــرِ لــذَّةً
لـشْيءٍ ولا مِـلْحــاً لِـمَـنْ يـتــملَّحُ

فــلا زالَ رَمْسٌ ضــمَّ عَــزَّةَ ســائــلاً
بــه نِعمــةٌ مــن رحمــة الله تَـسْفَــحُ

فـإنّ التي أحببتُ قـد حـال دونهـا
طـوالُ الليـالي والضّـريحُ المُصفّـحُ
أربَّ بـعـيـنـيَّ الـبُـكـا كُـلَّ لـيـلة
فقـد كاد مجرى الـدّمـع عينيَّ يقـرحُ
إذا لم يكُنْ مـا تسفحُ العين لي دمعـاً
وشـرُّ البُكـاءِ المستعـارُ الـمُسيَّـحُ

وقال يرثي صديقاً له يدعى أبا وَهْب:

لتَبْـكِ البـواكي المُبكيـاتُ أبـا وَهْب:
على كـلِّ حالٍ من رخـاءٍ ومن كـرْبِ
أخـا السّلْمِ لا يَعْيَـا إذا هي أقْبلَتْ
عليـه ولا يجْـوى مُعَـانقـةَ الحـرْبِ
فـإن تـكُ قـد ودّعـتنـا بـعـدَ خُلّةٍ
فنِعْمَ الفتى في الحيِّ كنتَ وفي الرَّكبِ
سقى الله وجهـاً غـادَرَ القـومُ رَسْمـهُ
مُقيمـاً ومَـرُّوا غـافلينَ على شَغْبِ

وقال في رثاء عبد العزيز بن مروان وكان يجلُّهُ كثيراً:

أقـولُ إذا مـا الـطّيـرُ مـرّتْ مُخيفـةً
سـوانُحهـا تجـري ولا أستثيـرهـا
فـدتك ابن ليلى نـاقتي حدثَ الـرّدى
وراكِبُهـا إن كـان كـونٌ وكـوُرُهـا

تقـولُ ابنـةُ البكـريِّ يـوم لقيتُهـا

لعمـرك والـدنيـا متين غـرورُهـا

لأصبحتَ هـدَّتـك الحـوادثُ هـدةً

نعم فشـواةُ الـرأس بـادٍ قتيـرهـا

وأسلاك سلمى والشّبابَ الـذي مضى

وفـاةُ ابن ليـلى إذ أتـاكَ خَبيـرُهـا

فـإن تـكُ أيّـامُ ابنِ ليـلى سبقنني

وطـالـتْ سِنِيٍّ بَعْـدَهُ وشـهـورُهـا

فـإنـي لآتٍ قـبـرهُ فـمـسـلّمٌ

وإن لم تُكـلِّمْ حفـرةٌ مـن يـزورهـا

ومـا صُحْبتي عبـد العـزيـز ومِـدْحتي

بعـاريّـةٍ يَـرْتـدُّهـا من يُـعيـرُهـا

شهـدتُ ابن ليلى في مـواطن جمـةٍ

يـزيـد بهـا ذا الحلمِ خضـورُهـا

تـرى القـومَ يخفـونَ التّبسّم عِنـدهُ

ويُنـذرُهُمْ عُـورَ الكـلام نـذيـرُهـا

فـلا هـاجـرتُ القـول يُؤثـرنَ عنده

ولا كلمـاتُ النُّصْحِ مُقصىً مُشيـرُهـا

فـلستُ بنـاسيـهِ وإن حِيـلَ دونَـهُ

وجـال بـأحـوازِ الصَّحـاصحِ مُـورُهـا

وإن طـوَيتْ من دونـه الأرض وانبـرى
لنكبِ الـرّيـاحِ وَفْيُهـا وحفيـرُهـا

حيـاتي مـا دامتْ بشـرقيٍّ يَلْبَـى
بَـرامٌ وأضحتْ لم تُسيَّرْ صُخـورُهـا

ولكن صفـاءُ الـودِّ مـا هبّت الصّبـا
ومـا لم تـزل جسمي رُبـاهـا وقـورُهـا

٤ - في الهجاء:

قال في ذم بني عمه الذين منعوه عن الماء:

أبـت إبـلي مـاءَ الـرَّادةِ وشَـفَّـهـا
بنـو العم يحمـون النَّضِيـحَ المبـرّدا

ومـا يمنعـون المـاء إلاّ ضَنَـانـةً
بـأصلاب عُشْـرَى شوكهـا قـد تخـددا

فعـادت فَلَم تَجْهَد على فضـل مـائـه
ريـاحاً ولا سقيـا ابنَ طَلْقِ بنِ أسعـدا

إذا وردت رغبـاء في يـوم وِرْدهـا
قَـلُوصـى دعـا إعـطَاشَـه وتـبـلَّدا

فـإنـي لأستـحييكـم أن أذِمُّكـم
وأكـرم نفسـي أن تسيئـوا وأُحمـدا

وقال في هجاء نُصَيْب وكانت بينهما مشاحنة. ولونه أسود . ويكنّى أبا الحجناء:

رأيت أبـا الحَجْناءِ في النـاس جائـزاً
ولــونُ أبي الحَجْنــاء لــونُ البهــائم
تــراهُ عــلى مــا لاحــهُ مِنْ ســوادِهِ
وإن كـان مظْلومـاً لـه وجـهُ ظـالمِ

وهجا ابن الزبير عندما سجن ابن الحنفية في سجن عارم وأراد أن يحرقه فقال:

لـك الـويــل من عيني خُبَيْبٍ وثـابتٍ
وحـمــزة أشبـاه الـحِـداء التــوائـم
تُـخبِّــر مـن لاقـيـت أنـك عــائــذ
بـل العائـذ المـظلوم في سجن عـارم

وقال يهجو بني ضمـرة وهم من بني بكر بن عبـد مناة بن كنانة:

لا بــأس بـالبَــزْواء أرضـاً لــو أنّهــا
تُــطَهَّــرُ مــن آثــارهـمْ فــتــطيــبُ
إذا مــدح البكْــريُّ عـنِـدكَ نفســه
فقُــلْ كـذِبَ البكْــريُّ وهـو كــذوبُ
هـــو التّيس لؤمــاً وهْــوَ إنْ راء غَفْلَةً
من الجـار أو بعْضِ الصّحـابــةِ ذيب

وأخيراً يهجو بعـل عزة بـالذفـر والجهل وينعتـه بالخـنـزير وبالعجوز المنحنية فيقول:

وما حَسَبتْ ضَمْريَّةٌ جَدَوِيَّةٌ
سوى التَّيْس ذي القرنين أنّ لها بعلا
فابلغ أبا الذفراء والجهْلُ كاسمه
ومن يغوِ لا يَعْدَمْ على غيّه عَذْلا

ويقول:

يكلّفها الخنزير شتمي وما بها
هواني ولكن للمليكِ استذلّتِ

ويقول:

رأتني كأشلاء اللجام وبعلها
من الملْء انبرى عاجز متباطن

٥ - في الفخر

يقول كُثَيِّر مفاخراً بشكله وشمائله:

رأتني كأنضاء اللجامِ وبعلُها
من الملْء انبرى عاجزٌ مُتباطِنُ
رأت رجلاً أودى السِّفارُ بوجهِهِ
فلم يبقَ إلاّ منظرٌ وجَناجِنُ
فإن أكُ معروقَ العظامِ فإنني
إذا وُزِنَ الأقوام بالقومِ وازِنُ
متى تحسروا عنّي العمامة تبصروا
جميل المُحيّا أغفلتْهُ الدَّواهنُ

يــروقُ العُيـونَ النــاظـراتِ كــأنّــهُ
هِــرَقْـليٌّ وزْنٍ أحـمــرُ التّـبْـرِ وازِنُ
وإني لمــا استــوْدعتْني مـن أمــانــةٍ
إذا ضــاعـتِ الأســرارُ لـلسِّــرِّ دافـنُ
ومـا زلتُ من ليلى لـدُنْ طـرَّ شـاربي
إلـى اليــومِ أُخـفي حُـبَّهــا وأُداجـنُ
وأحمــلُ في لـيلى لـقــومٍ ضغـينــةً
وتُحْـمَــلُ في ليلى عليَّ الـضّغـائِـنُ

ويفاخر بشكله وجلاله في موقع آخر فيقول:

وكنتُ إذا مــا جئت أجللن مـجلسـي
وأظـهــرن مني هيـبــة لا تجـهـمـا
يحــاذرن مني غيــرة قــد عـلمنـهـا
قــديمــاً فمــا يضحكن إلّا تبسمــا
يكللن حَــدَّ الـطرف عن ذي مهــابةٍ
أبــانَ أولاتَ الــدلّ لـمــا تـبسّـمــا
تــراهــن إلّا أن يــؤديــن نــظرة
بـمؤخّــر عـين أو يـقلبـن معـصـمــا
كــواظـم مــا يـنـطقـن إلا مـحـورة
رجـيعــة قــول بـعــد أن يُتـفّـهـمــا
ولـكـنــه إذا مــا قـلن قــولاً يـسـرّه
أسـر الـرضــا في نفســه وتجـرمــا

ويفاخر بحفظه للسر وسلامة طويته وكرمه فيقول:

أتى دون مـا تخشـون من بث سـركم
أخــو ثـقـةٍ سمــح الـخـلائق أروع
ضنين ببـذل الـسّـرِّ سمـح بـغيـرهِ
سليم ومـا كـانت لــه الشمس تـطلع

ويتعالى على دمامته وقِصَرِهِ فيقول:

تــرى الــرجـل النحيف فـتــزدريــه
وفــي أثــوابــه أســد هــصــورِ
وجـرّبــت الأمــور وجــرّبـتـنـي
وقــد أبــدت عــريـكـتـي الأمـورِ
ومــا تـخـفـي الــرجــال عـليَّ أنـي
بـسهـم لأخــو مــشــاقبــة خــبــيــرِ

وقال مفاخراً بقبيلته:

ونـحن مـنعـنـا من تِـهـامـةَ كـلهـا
جُنوبَ نقا الخوّارِ فـالـدَّمِثَ السهـلا
بُكـلِّ كميْتٍ مُجفَرِ الـدفِّ سابـحٍ
وكـلِ مِــزاقٍ ورْدةٍ تـعـلِكُ الـنِّـكْـلا
غــوامضُ كـالعقبــانِ إن هي أرسلْت
وإن أمسكتْ عن غـربهـا نقلت نقــلا

عليهنّ شُعْثٌ كـالمخـاريقِ كُـلُّهمْ
يُعَـدُّ كـريمـاً لا جبانـاً ولا وغْـلا

بـأيـديـهـمُ خُـطّيّـةٌ وعـليـهـم
سـوابـغُ فِـرعـونيّـةٌ جُـدِلَتْ جَـدْلا

تـرانـا ذوي عـزٍّ ويـزعـم غيـرنـا
من أعـدائنا أن لا يـرونَ لنا مِثْـلا

نحـاربُ أقـوامـاً فنسْبي نسـاءهُمْ
ونصفدهُمْ أسـراً ونـوجعهُمْ قَتَـلا

ونحن غيـارى دون كـل خـريـدةٍ
تُكَنُّ أديمـاً واضحـاً وشـوىً عبـلا

فيؤخـذ منّـا العـقـلُ دون دمـائنـا
ونـأبى فـلا نستـاق من دمنا عقـلا

ونحمي إذا اشتـدّ الهيـاج نسـاءنـا
ولم يـرَ ذو عينٍ لنسـوتنـا حجـلا

ويضـربُ ريعـانَ الكتيبـة صفُّنـا
إذا أقبـلتْ حتـى نـطرّفهـا رعـلا

وأثبتُـهُ داراً عـلى الخـوْفِ ثَـمْلُهـا
فـروعُ عوالي الغـابِ أكرِمْ بها ثَمْـلا

وأبـعـده سـمعـاً وأطيـبُـهُ نـثـاً
وأعـظمُـهُ حِلمـاً وأبعـدُهُ جهـلا

وأقــولُــهُ لـلضيـفِ أهــلاً ومــرحبــاً
وآمَــنُــهُ جــاراً وأوســعُــهُ جَــبْــلا
فســائـلْ بقـومي كُـلَّ أجْــرَدَ سـابــحٍ
وسـلْ غنمـاً رُبِّي بضمــرة أو سخـلا
ســواء كـأسنــان الحمـار فــلا تـرى
لذي كَبْرةٍ منهم على ناشىءٍ فضلا

٦ ـ في الوصف

قال الشاعر في وصف البرق والمطر واخضرار الطبيعة:

أشــاقـك بَــرْقٌ آخِـرَ الليــلِ خـافقُ
جــرى من سنــاهُ بَيْنــةٌ فــالأبــارِقُ
قعــدتُ لـه حتى عــلا الأفـقَ مــاؤه
وســال بفعْمِ الـوَبْــلِ منـه الـدَّوافِقُ
يرشّحُ نبتـاً نـاعمـاً ويـزينُـهُ
نـدىً وليــالٍ بعـد ذاكَ طــوالِقُ
وكيف تــرجّيهــا ومـن دون أرضهــا
جبـالُ الـرُّبــا تلك الـطِّوالُ البــواسقُ
حــواجـرُهــا العُليا وأركــانهــا التي
بـهــا من مـغــافيــر الـعِنــاز أفــارقُ

وقال يصف الظعن والرحل والديار الدارسة:

لـمـن الـديـار بـأبـرقِ الـحنّـان
فـالبُـرْقِ فـالهضبـاتِ مـن أدمـانِ
أقـوتْ مـنـازلُهـا وغـيّـر رسمـهـا
بـعـد الأنيس تـعـاقـب الأزمـانِ
فـوقفْتُ فيهـا صـاحبيّ ومـا بـهـا
يـا عـزَّ مـن نِـعَـمٍ ولا إنـسـانِ
إلّا الـظِّبـاءَ بـهـا كـأنّ نـزيـبـهـا
ضـرْبُ الشراعِ نـواحيَ الشِّرْيـانِ
فـإذا غـشيـتُ لـهـا بِبُـرْقـةِ واسطٍ
فـلِويَ لُـبَـيْـنَـةَ مـنـزلاً أبـكـانـي
ثـم احـتـمـلن غُـديّـةً وَصَـرَمْـنَـه
والـقـلب رهَـنٌ عـنـد عـزّةَ عـانِ
ولقـد شـأتـك حمـولُهـا يـوم استـوتْ
بـالـفُـرع بيـن خـفـيـنـنٍ ودعانِ
فـالقلب أصـوْرُ عـنـدهُنَّ كـأنـمـا
يـجـذّبـنـه بـنـوازعِ الأشـطانِ

وقـال في وصـف أطـلال حبيبتـه عـزّة ووصف المـطر المتساقط فيها:

سقى أمَّ كُـلْثُـومٍ على نـأي دارهـا
ونسـوتهـا جَـوْنَ الحَيَـائم بـاكـرِ

أحـــمُّ رَجُـوفٌ مســـتهـل ربـابُـه
لــه فِـرَقٌ مُـسْـحـنـفـرات صــوادرِ
تصعَّـدَ في الأحنـاء ذو عَـجْـرَفِيَّـةٍ
أحَـمُّ حَبَـرْكي مـرجف متمـاطـرِ
وأعـرض من ذَهْبان مُغـرورق الـذُّرى
تَـرَيَّـعَ منـه بـالنـطاق الحَـوَاجِـزِ
أقــام عـلى جُمـدان يــومـاً ولـيـلة
فجمـدان منـه مـائـل متقـاصـر
وعَـرَّس بـالسكـران يـومين وارتكى
يجـرُّ كمـا جَـرَّ المكيث المسـافـر
بــذي هَيْـدب جَـوْنٌ تنجّـزُه الصَّبـا
وتـدفعـه دفـع الـطَّلا وهـو حـاسـر
وسُـيـلَ اكـنـافِ الـمـرابـد غـدوةً
وسيـل عنـه ضـاحـك والعـواقـر
فـأمسى يسحُّ المـاء فـوق وُعَيـرة
لــه بـالـلوى والـواديـين حـوائـر
فـاقـلع عـن عُشٍّ وأصبـح مـزنـة
أفـاءَ وآفـاق الـسـمـاء حـواسـر
فـكـل مسيـل من تِـهـامـةَ طيِّبٌ
تسيـل بــه مُسْلَنْـطَحَـات دعـائـر

وقال في وصف الذئب:

وصادفتُ عَيّالاً كأنَّ عُواءهُ
بُكا مُجْرَذٍ يَبْغي المبيتَ خَليعِ
عوى ناشِزَ الحيزُومِ مُضْطمرَ الحشا
يُعالجُ لَيْلاً قارساً مَعَ جوعِ
فَصوّتَ إذ نادى بباقٍ على الطّوى
مُحنَّب أطرافِ العِظامِ هَبوعِ
فلم يجترِسْ إلاَّ مُعَّرسَ راكبٍ
تأيّاً قليلاً واسترى بقطيعِ
ومَوْقِع خُرْجُوجٍ على ثَفِناتِها
صَبورٍ على عدوى المُناخ جموعِ
ومطْرَح أثناءِ الزِّمامِ كأنَّهُ
مزاحِفُ أيْمٍ بالفناء صَريعِ

وقال يصف الغيث:

فذَرني ولكن شاقني متغرِّدا
أغرُّ الذُّرى صاتُ العشياتِ أوْطفُ
خفيٌّ تعَشّى في البحار ودونه
من اللجِّ خضرٌ مُظْلِماتٌ وسُدَّفُ
فما زال يستشري وما زلت ناصباً
له بَصَري حتى غدا يَتَعَجْرفُ
من البحر حمحامٌ صُراحٌ غَمامُهُ
إذا حنّ فيه رعدُهُ يتكشَّفُ

إذا حنّ فيه الرعدُ عجّ وأرْزَمتْ
لهُ عُوَّذٌ منها مطافيلُ عُكَّفُ
تَرَبَّعُ أولاه على حَجِراته
جميعاً وأُخراه تنوبُ وتردفُ
إذا استدْبَرتهُ الرِّيحُ كي تستخفَّهُ
تراجن مِلْحاحٌ إلى المكْثِ مُرْجِفُ
ثقيلُ الرَّحى واهي الكِفافِ دَنَا لهُ
ببيضِ الرُّبى ذو هَيْدَبٍ مُتعصِّفُ
رسا بغُرانٍ واستدارتْ به الرَّحى
كما يستديرُ الزَّاحِفُ المُتَغَيِّفُ
فذاك سقى أُمَّ الحُوَيْرِثِ ماءه
بحيث انْتَوَتْ واهي الأسرّة مُرْزِقُ

ومنها يصف خباءً:

وبيتٍ بموماةٍ من الأرض مجهلٍ
كظلِّ العقابِ تستقلُّ وتخطفُ

٧ ـ الوقوف على الأطلال والرسوم

قال كُثَيِّر عند مروره بأطلال الحبيبة:

خليليَّ عُوجا مِنْكُم ساعةً معي
على الرَّبْعِ نقضِ حاجةً ونودِّعِ

وتـعـجـلانـي أنْ أُلِـمَّ بـدمـنـةٍ
لـعـزَّةَ لاحتْ لـي ببيـداءَ بَـلْقـعِ

وقـولا لقلبٍ قد سـلا راجـعِ الهـوى
وللعيـن أذرى من دُمـوعـكِ أوْدعـي

فـلا عيشُ إلاّ مِثْـلُ عيشٍ مضى لنـا
مصيفـاً أقمنـا فيـه من بعـدِ مَـرْبَـعِ

تَـفـرّق أُلاّفُ الحـجيـج عـلى مِنًى
وشتّتهمْ شـحطُ النّـوى مشيَ أرْبَـعِ

فـلم أرَ داراً مـثـلهـا دار غِـبْـطَةٍ
ومَلْقىً إذا التفّ الحجيـجُ بمجمـعِ

أقـلَّ مُـقيـمـاً راضيـاً بـمـكـانـه
وأكـثـرَ جـاراً ظـاعنـاً لـم يُـوَدَّعِ

فـأصبـح لا تلقى خبـاءً عـهـدتـه
بـمَـضْـربـهِ أوتـادُهُ لـم تُـنَـزّعِ

فشـاقـوك لمّـا وجّهـوا كـلّ وجهـةٍ
سـراعـاً وخلوّاً عن مـنـازلَ بَلْقَـعِ

فـريقـان: منهم سـالـكٌ بـطنَ نخلةٍ
وآخـرُ منهمْ جـازعٌ ظَهْـرَ تَـضْـرُعِ

كـأنَّ حُـمـولَ الحيّ حين تحّملوا
صـريمـةُ نخـلٍ أو صـريمـةُ إيـدَعِ

فـإنـك عمـري هـلْ أريــك ظعـائنـاً
غــدوْنَ افتـراقــاً بالخليطِ المــودَّعِ
ركبن اتضــاعـاً فـوق كــلِّ عُـذفـرِ
من العيس نَضّـاحِ المعـدَّيْنِ مُــرْفـعِ
تــواهـق واحتـثّ الحــداةُ بـطاءهـا
على لاحـبٍ يعلو الصيــاهب مهيــعِ

وقال أيضاً:

أربــع فــحــيّ مــعــارف الأطــلال
بــالجــزع من حُــرض فهن بَــوالـي
فِشــراج رِيمـةٍ قــد تقادم عهــدهـا
بــالـسـفـح بـيـن أُثـيّـل فـبـعـال
لـمــا وقَـفـتْ الـقـلوص تـبـادرتْ
حَـبَبُ الـدمـوعِ كـأنـهنّ عَـزالـي
وذكــرتُ عَــزَّةَ إذ تُـصـاقِـب دارهـا
بـرحـيـب فـارايـن فـتُـخـالِ
أيــام أهــلونــا جـمـيـعـاً جـيـرة
بـكـنـانـة فَـفُـراقِـد فـثُـعـالِ

وقال أيضاً:

حَيِّ المنــازلَ قــد عفتْ أطـلالهـا
وعفـا الــرسم بمــورهن شـمــالهـا

قفــراً وقفت بهــا فقلت لـصــاحبي
والعيـن يسبق طــرفهــا إسبــالـهــا
أقــوى الغيـاطــلُ من حــراجِ مَبَــرَّةٍ
فَخْبُـوب سهـوة قــد عفتْ فَـرِمَــالهـا

وقال :

فـقــد قــدمت آيــاتِـهــا وَتـنـكّــرت
لمــا مــرَّ من ريــح وَوَطْـف مُــرْهمِ
تــأملت من آيــاتـهــا بعــد أهـلهــا
بــأطــراف أعــظام فــأذنــابِ أزْنُـمِ
مـحــانِـيَ آنــاءٍ كــأن دروســهــا
دروس الجـوابي بعـد حــول مُجَـرَّمِ
بـنيــتُ لـفـتيــان فــظلَّ عــمــادُهُ
بــداويــةٍ قــفــرٍ وشـيــجٌ مُــثـقَّــفُ
ونـحــن مـنـعـنــا بين قــرٍّ ورابــغٍ
من النــاس أن يُـغْــزى وأن يُتـكنّـفُ
إذا سَـلَفٌ منــا مــضى لــسـبـيـلِهِ
حَـمى عَــذِراتِ الـحيِّ مـن يتـخلّفُ

٨ ـ في الحكمة:

وله العديد من الأبيات في الحكمة منها:

في المعاشرة:

فَمَنْ لا يغمضْ عينَـهُ عن صديقهِ
وعنِ بعضِ ما فيه يَمُتْ وهو عَاتِبُ
ومن يتتبع جاهداً كلَّ عثرةٍ
يجدْها ولا يسلم له الدهر صاحبُ

وفي الطبع والتطّبع:

ومن يبتدع ما ليس من خِيم نفسه
يدعه ويغلبه على النفس خيمها

وفي الصبر على النوائب:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي
عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لا بدّ يوماً
ولو بقيت تصير إلى النفادي

وقال في حتمية الموت:

وأعلم أني لن أسربل جُنَّة
من الموت معقوداً على تميمها

فمـــا لامـرىءٍ حَيٍّ وإن طـــال عمـره

ولا لـــلجبـــال الـــراســيـــات خـلـود

وفي توطين النفس للمصيبة:

قـلتُ لهـــا يـــا عَـــزَّ كُـــلَّ مـصيبـةٍ

إذا وطنت يـــومـــاً لـهـــا النـفس ذلّت

ويقـول في عـدم الجـزع عنـد تقلب الأحـوال والصبـر، والتفاؤل عند الشدائد:

فـمـــا رَوْنَقُ الـــدنـيـــا بـبـــاقٍ لأهـلـه

ولا شـــدة الـبـلوى بـــضـــربـــة لازمِ

فـــلا تجـزعن من شـــدة إن بعـدهـــا

فـــوارج تلوي بـالخـــطوب العـــظائمِ

فهرس المصادر والمراجع

- **الأبشيهي: أبو الفتح محمد بن أحمد.**

المستطرف في كل فن مستظرف. مصر. ط. مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢ م.

- **ابن الأثير: ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري.**

الكامل في التاريخ. صححه عبد الوهاب نجار. مصر: مط. المنيرية ١٣٤٨ هـ.

- **ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد.**

وفيات الأعيان. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مصر. مط. السعادة ١٩٤٨ م.

- **ابن رشيق: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني.**

العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مصر. مط. السعادة ١٩٦٣ م.

- **ابن سعد: أبو عبد الله البصري الزهري.**

الطبقات الكبرى. صححه إدوارد اسحق. ط. إبريل ١٣٢٢ هـ.

- **ابن سلام: أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي.**
طبقات فحول الشعراء. ط. إبريل ليدن، ١٩١٣ م.

- **ابن عبد الحق: البغدادي.**
مراصد الإطلاع. تحقيق علي البجاوي. مصر. مط عيسى البابي الحلبي ١٩٥٤ م.

- **ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي.**
العقد الفريد. تحقيق محمد العريان. مصر: مط. الاستقامة ١٩٤٠ م.

- **ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين.**
تاريخ دمشق. مصر. دار الكتب المصرية.

- **ابن قتيبه: ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري.**
١- عيون الأخبار. مصر: ط. دار الكتب المصرية.
٢- الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء. مصر. مط. مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٧ م.

- **ابن المعتزّ: عبد الله بن المتوكل بن المعتصم.**
طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار فرّاج. مصر: ط. دار المعارف.

- **ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم.**
لسان العرب. بيروت: ط. دار صادر ودار بيروت ١٩٥٥ م.

- **ابن ميمون: محمد بن مبارك.**

منتهى الطلب من أشعار العرب. مخطوط بدار الكتب المصرية.

- **أبو عبيدة، معمر بن المثنّى.**

نقائض جرير والفرزدق. تحقيق بيڤان. ط. إبريل ١٩٠٥ م.

- **الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد.**

تهذيب اللغة. القاهرة. ط. الدار القومية، لات.

- **الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأموي.**

كتاب الأغاني. مصر. ط. دار الكتب المصرية.

- **الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب.**

فحولة الشعراء.

- **الأمين: السيد محسن.**

أعيان الشيعة. بيروت. مط. الانصاف ١٣٠٧ هـ.

أمين، أحمد.

ضحى الإسلام. القاهرة: ط ٤. مط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٦ م.

- **البصري: صدر الدين علي بن أبي الفرج.**

الحماسة البصرية. مط. دار الكتب المصرية.

- **البغدادي: عبد القاهر.**
الفرق بين الفرق. بيروت. مط. دار الآفاق ١٩٨٠ م.
- **البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي.**
معجم ما استعجم. تحقيق مصطفى السقّا. مصر: مط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ م.
- **بيرس: هنري.**
شرح ديوان كُثيِّر عزة. الجزائر ط. الجزائر ١٩٣٠ م.
- **التنوخي: أبو علي المحسن بن علي.**
المستجاد من فعلات الأجواد. تحقيق محمد كرد علي. دمشق. مط. الترقي ١٩٤٦ م.
- **ثعلب: أبو العباس أحمد الشيباني.**
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى. مصر. ط. الدار القومية ١٩٦٤ م.
- **الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر.**
١ ـ البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. مصر. ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٨ م.
٢ ـ الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت دار إحياء التراث العربي، لات.
٣ـ المحاسن والأضداد. تصحيح محمد الخانجي الكتبي. مصر. مط. السعادة، لات.

- **الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد.**
الصحاح (تاج اللغة وصحاح العرب). تحقيق محمد عطا. مصر. ط دار الكتاب العربي، لات.

- **الحطيئة: شاعر من بني عبس.**
ديوانه، شروح جمعها أمين طه. مصر. مط. مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨ م.

- **الحموي: أبو بكر بن حجه.**
خزانة الأدب. مصر: ط. بولاق، لا ت.

- **حِتّي: فيليب.**
١ ـ الاسلام منهج حياة. ترجمة عمر فرّوخ. بيروت. دار العلم للملايين ١٩٧٢ م.
٢ ـ تاريخ العرب. بيروت: (ط ٥) دار غندور ١٩٧٤ م.

- **الخونساري: محمد باقر الموسوي.**
روضات الجنات. ط. حجرية، لات.

- **خفاجي: محمد عبد المنعم.**
الحياة الأدبية (في عصر بني أمية). بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠ م.

- **خليف: يوسف.**
الحب المثالي عند العرب. مصر: ط. دار المعارف سلسلة إقرأ ١٩٦١ م.

- **الدينوري: أبو حنيفه.**

الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر وغيره. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠ م.

- **الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد.**

المشتبه في الرجال: أسماؤهم وأنسابهم. تحقيق علي البجاوي. مصر: مط عيسى البابي الحلبي، لات.

- **الزبيدي: أبو الفيض محمد المرتضى الحسيني.**

تاج العروس من جواهر القاموس. مصر: مط. الخيرية، ١٣٠٦ هـ.

- **زيدان: جرجي.**

تاريخ التمدن الإسلامي. تحقيق حسين مؤنس. القاهرة. (ط ٢). دار الهلال ١٩٥٨ م.

- **السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.**

١ - شرح شواهد المغني. مصر: ط البهية، لات.

٢ - شروح التخليص.

٣ - تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مط. المدني ١٩٦٤ م.

- **الشوشتري.**

مجالس المؤمنين. (بالفارسية). ترجمة أحمد ناجي القيسي، لات.

- **الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير.**

تاريخ الأمم والملوك. ط. بريل ١٨٩٠ م.

- **الطرابلسي: إبراهيم بن السيد علي الحنفي.**

فرائد اللآل في مجمع الأمثال. بيروت: مط الكاثوليكية، ١٣٢١ هـ.

- **العيني. محمود بدر الدين.**

المقاصد النحوية، المشهور بشرح الشواهد الكبرى. مطبوع على حاشية خزانة الأدب للبغدادي.

- **فيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب.**

القاموس المحيط. مصر: مط. الأميرية ببولاق ١٣٠١ هـ.

- **القارىء السراج: أبو محمد جعفر بن أحمد.**

مصارع العشاق. بيروت. ط. دار صادر ١٩٥٨ م.

- **القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي.**

صبح الأعشى في صناعة الإنشا مصر: ط. دار الكتب المصرية.

- **لويس: برنارد.**

العرب في التاريخ. ترجمة نبيه فارس وغيره. بيروت: دار العلم للملايين ١٩٥٤ م.

ـ **المرتضى: الشريف علي بن الحسين.**

الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: مط عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤ م.

ـ **المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران.**

معجم الشعراء. تحقيق عبد الستار فرّاج. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. ١٩٦٠ م.

ـ **المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين.**

١ ـ التنبيه والإشراف. تحقيق بارون روزن. بيروت: مكتبة خياط، ١٩٦٥ م.

٢ ـ مروج الذهب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت. المكتبة الإسلامية، لات.

ـ **الملك الأشرف: عمر بن يوسف بن رسول.**

طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب. تحقيق سترستين. دمشق. مط. الترقي ١٩٤٩ م.

ـ **النويري: شهاب الدين بن أحمد.**

نهاية الأرب في فنون الأدب. مصر: دار الكتب المصرية، ١٩٢٣ م.

ـ **الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد.**

صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن عبد الله النجدي. القاهرة: مط. السعادة.

- **الوشاء: أبو الطيب محمد بن أحمد.**

الموشى. ط. بريل، ١٣٠٢ هـ.

- **اليافعي: أبو محمد عبد الله اليمني.**

مرآة الجنان وعبرة اليقظان. ط. حيدر آباد الدكن. ١٣٣٧ هـ.

- **اليعقوبي: أحمد بن واضح.**

تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر، لات.

فهرس الموضوعات